الاستشراق عند إدوارد سعيد - رؤية إسلامية

د. تركي بن خالد الظفيري

مركز التأصيل للدراسات والبحوث
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ/٢٠١٥م

تصميم الغلاف: مركز التأصيل

الحجم: ١٧×٢٤سم

التجليد: غلاف

جميع الحقوق محفوظة للمركز. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع دون إذن خطي مسبق من

All rights reserved. No part of this book may be reproduced. Or transmitted in any form or by any means. Electronic or mechanical. Including photocopyings. Recordings or by any information storage retrieval system. Without the prior permission in writing of the publisher.

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

المملكة العربية السعودية، جدة، طريق الحرمين (الخط السريع)، بجوار كوبري التحلية.

هاتف: ٦٢٨٨٦٨٥ ٠١٢ ٩٦٦ +   ناسوخ: ٢٧١٨٢٣٠ ٠١٢ ٩٦٦ +

ص ب: ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥ المملكة العربية السعودية

الموقع الإلكتروني: www.taseel.com

بريد إلكتروني: taseel@taseel.com

رأي المؤلف لا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

المقدمة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي منّ بالإسلام على البشرية، وهداهم إلى دينِ الحقِّ والعدلِ والإنسانية، وأنار بالعلمِ ظلماتِ الجاهلية، أحمد ربي وأشكره على نعمه العظام، وأشهدُ ألّا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ذو الجلالِ والإكرام، وأشهدُ أنَّ نبينَا وسيدَنا محمداً عبدُه ورسولُه نبيُّ الرحمةِ والعدلِ والسلام، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم وبارك على عبدِك ورسولك محمدٍ وعلى آله وصحبه الكرامِ، أما بعد:

فإنَّ العلاقات بين الشرق والغرب تتعرض منذ قرون إلى شدٍّ وجذب ثقافي وديني وسياسي واقتصادي، وقد دارت مساجلات فكرية طاحنة حولها، ونشأت مدارس فكرية وتخصصات أكاديمية[1]، ويعدُّ الاستشراق من أهم هٰذه التخصصات المتعلقة بدراسة الشرق، وقد استبدل المستشرقون هذا المصطلح بسبب الإيحاءات السلبية التي يتضمنها مصطلح «الاستشراق»، وفضَّلوا استخدام

(١) انظر: الشرق والغرب محددات العلاقات ومؤثراتها، د. علي بن إبراهيم النملة، (الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) ص٩.

إنَّ منهج إدوارد سعيد في نقد الاستشراق سيتضح من خلال دراستنا لحياته، والعوامل التي أثرت عليه، والمفكرين الذين أثروا في منهجه النقدي، ويتبين منهجه النقدي عند تحليل كتابه «الاستشراق»، ودراسة كتبه الأخرى التي تعالج موقف الغرب من الشرق، وسأتناول بالنقد ما يحتاج إلى نقد في رؤيته للاستشراق، وفي منهجه النقدي.

مشكلة الدراسة:

تتجلى مشكلة البحث في معرفة المناهج والشخصيات التي أثرت في صياغة منهج إدوارد سعيد النقدي، والتعرف على موقفه من الاستشراق، واستنتاج منهجه النقدي الذي اعتمده لدراسة تراث المستشرقين، وتقييم هذا المنهج ونقده، ودراسة الانتقادات الموجهة لموقفه من الاستشراق وتقييمها بموضوعية وحياد.

حدود الدراسة:

١ ـ تحلل الدراسة كتب إدوارد سعيد التي تعالج نظرة الغرب للشرق ـ وخاصة كتاب «الاستشراق» ـ، لمعرفة موقفه من الاستشراق، ومنهجه النقدي الذي اعتمده، ونقد هذا المنهج. وسأركز على الكتب الآتية ـ على تفاوت في الاقتباس والتحليل فيما بينها ـ:

- كتاب «الاستشراق».
- كتاب «الثقافة والإمبريالية».
- كتاب «تغطية الإسلام».
- كتاب «العالم والنص والنقد».
- كتاب «القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي».

٢ ـ معرفة الشخصيات التي أثرت في منهج إدوارد سعيد النقدي، ومظاهر تأثره بها.

٣ ـ الدراسات التي تطرقت لمنهجه سواء مؤيدة أم ناقدة لموقفه من الاستشراق، منذ أن ألَّف كتابه «الاستشراق» عام ١٩٧٨م إلى وقتنا الحاضر.

أهمية البحث وأسباب الاختيار:

تظهر أهمية البحث في عدة نقاط، يمكن إجمالها في التالي:

يعتبر كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد من أهم المراجع في نقد الاستشراق، تُرجِم إلى أكثر من عشرين لغة، وأصبح مرحلة فارقة في الدراسات الاستشراقية.

فإدوارد سعيد -أمريكي الجنسية- أكمل تعليمه في أمريكا، ودرَّس في جامعتها، ولهذا انتقد الاستشراق من داخل المؤسسات الراعية له، وتعرَّف على الصورة الذهنية التي رسمها الغربيون للشرق.

وإدوارد سعيد -فلسطيني الأصل- عاش منفياً عن بلاده فلسطين، وقد جعل القضية الفلسطينية هدفاً من أهدافه، وتعرض بسببها لمحاولة اغتيال من قبل الصهاينة، ولم يثنه ذلك عن نصرة قضيته.

وإدوارد سعيد - نصراني الديانة- كتب عن الإسلام وبيّن أنه دين تعرَّض للظلم والتشويه حاله كحال نظرة الغرب إلى الشرق وأهله.

وإدوارد سعيد -الناقد الأدبي- تأثر بمفكرين، وله نتاج ثقافي، وقد تميز بمنهجه النقدي الخاص به درسه المؤلف وفق رؤية إسلامية.

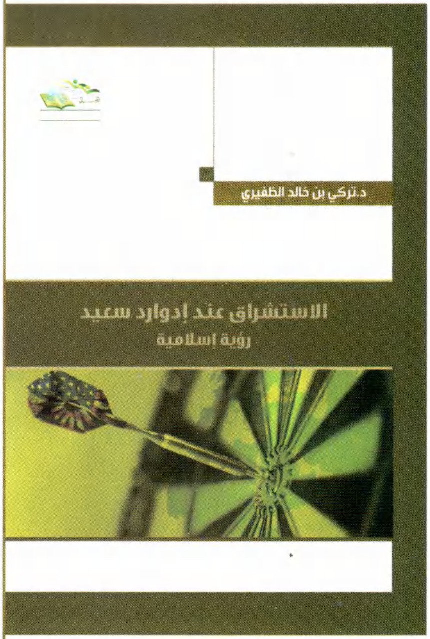

المملكة العربية السعودية - ص.ب ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥
هاتف: ٦٢٨٨٦٨٥ ٢ (٩٦٦+) فاكس: ٢٧١٨٢٣٠ ٢ (٩٦٦+)
www.taseel.com - taseel@taseel.com
مركز التأصيل للدراسات والبحوث

الاستشراق
عند
إدوارد سعيد

رؤية إسلامية

د. تركي بن خالد الظفيري

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

الإهـــــداء

إلى معلمي وأستاذي وصديقي ووالدي الذي رباني فأحسن تربيتي إلى أبي رحمه الله الذي عاش معي ظروف هذه الرسالة لحظة بلحظة، يتابع الإنجاز، ويلهج لسانه بالدعاء لكاتبها. أدرك نهايتها ولم يدرك مناقشتها إليك أبي أهدي هذا النجاح رحمك الله وتغمدك بواسع رحمته فكم أفتقدك.

مصطلح الدراسات الشرقية أو مصطلح دراسات المناطق[١]. وقد اتجه بعض المفكرين العرب إلى دراسة الاستشراق، والتأمل في تاريخه ونشأته والأدبيات التي ينظر من خلالها إلى الشرق، وكان من أبرزهم إدوارد سعيد (١٩٣٥ - ٢٠٠٣م) ذو الأصول الفلسطينية، والجنسية الأمريكية.

عاش سعيد أكثر حياته في أمريكا طالباً، وأكاديمياً، وناقداً أدبياً، ومفكراً، وقد قضى معظم حياته الأكاديمية أستاذاً في جامعة «كولومبيا» في نيويورك، ويتحدث إدوارد سعيد العربية والإنجليزية والفرنسية بطلاقة.

إنَّ بروز سعيد في النقد الأدبي، والنكسات التي عانت منها القضية الفلسطينية، وحياته في المنفى، جعله يتجه إلى قراءة العقلية الغربية تجاه الشرق، فقدَّم تحليلاً عميقاً للخطاب الغربي، حلَّل خطابات السياسيين، وروايات الأدباء البارزين، وأقوال الفلاسفة والمفكرين الغربيين، تلمَّس من خلالها الرؤية الغربية الواعية واللاواعية تجاه الشرق، وكان لدراسته في أمريكا وتدريسه فيها، دور ظاهر في تميزه بالدراية الدقيقة للغرب وخباياه الأكاديمية والأدبية والفلسفية؛ فأضحى له منهجه الخاص في تحليل الخطاب الاستشراقي.

لم يمرُّ كتاب «الاستشراق» مروراً عابراً على المفكرين الغربيين، بل كان محل نقدهم، والذي أثار حفيظتهم في نقده هو اللهجة الهجومية التي تستند إلى معرفة دقيقة بمناهج التحليل الغربية الجديدة، التي قرأت مناطق أخرى من ممارسة القوة والمعرفة، وكشفت عن فضيحة العقل الغربي أزمنة التنوير والحداثة، ولذلك أصبح «الاستشراق» من الكتب الأساسية في القرن العشرين، وقد تُرجم إلى أكثر من عشرين لغة، ثم استتبعه بعدة كتب تتجه إلى ذات الهدف والمقصد، ولعلَّ من أبرزها كتاب «الثقافة والإمبريالية» وكتاب «تغطية الإسلام»، وغيرها.

ولقد فتح كتابه «الاستشراق» حقلاً جديداً في الدراسات الأكاديمية يعرف بدراسات ما بعد الكولونيالية - أي: الاستعمار -، ولهذا أتى هذا الكتاب «الاستشراق عند إدوارد سعيد - رؤية إسلامية» ليناقش موضوعاً هاماً في الدراسات الاستشراقية.

---

(١) انظر: الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة: د. محمد عناني، (القاهرة، دار رؤية، ط١، ٢٠٠٦م) ص٤٤.

١ ـ كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد من أهم المراجع في نقد الاستشراق، وأصبح مرحلة فارقة في الدراسات الاستشراقية، وقد ترجم إلى أكثر من عشرين لغة.

٢ ـ أثار كتاب «الاستشراق» ردود فعل متباينة، فمع وجود مناصرين لمنهجه اتسعت موجة الانتقادات لموقفه من الاستشراق، فقد انتقده بعض المستشرقين مثل: «برنارد لويس»، و«جستس رايد فاينر» وانتقده ـ أيضاً ـ بعض المفكرين اليساريين مثل: مهدي عامل، وصادق جلال العظم(١)، كما سيأتي بيانه عند مناقشة نقدهم.

٣ ـ إدوارد سعيد أمريكي الجنسية، تعلم وعلَّم في أمريكا، وتعرَّف عن قرب على الصورة الذهنية التي رسمها الغربيون للشرق، لذا هو ينقد الاستشراق من داخل المؤسسات الراعية له.

٤ ـ يُعدُّ إدوارد سعيد مؤسسَ دراسات ما بعد الكولونيالية، بسبب منهجه الذي اعتمد على ربط الاستشراق بالاستعمار الغربي والإمبريالية الأمريكية.

٥ ـ إدوارد سعيد بروتستانتي الديانة، يدافع عن الإسلام ويفند نظرة الغرب للإسلام، ويكشف زيف الادعاءات الغربية ضد الإسلام.

ولمّا كانت دراسة منهج إدوارد سعيد في نقد الاستشراق بهذه الأهمية، ولأنه من أهم نقَّاد الاستشراق وفق منهج نقدي لنصوص المستشرقين، ولعدم وجود دراسة أكاديمية متخصصة حوله، رأيت أنه من الضروري دراسة وتحليل موقفه من الاستشراق، ومعرفة منهجه في نقده، ومناقشة ما دار حول منهجه من ردود فعل متباينة، ونقد ما يحتاج إلى نقد في رؤيته ومنهجه.

أهداف الدراسة:

١ ـ دراسة كتب إدوارد سعيد التي تعالج نظرة الغرب للشرق.

٢ ـ التعرف على الشخصيات الفكرية المؤثرة في منهج نقد الاستشراق عند إدوارد سعيد، ومظاهر تأثره بها.

---

(١) انظر مقال: الاعتراضات على سعيد بين التهافت والتحزب والتحليل، إبراهيم فتحي، مجلة البلاغة المقارنة ـ ألف ـ، الجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة، العدد: ٢٥، ٢٠٠٥م، ص١٥٧ ـ ١٦٩.

٣ ـ استنتاج منهج إدوارد سعيد في نقد الاستشراق، ونقد منهجه.

٤ ـ التعرف على أبرز الانتقادات الموجهة لموقف إدوارد سعيد من الاستشراق، وتحليلها ونقدها.

٥ ـ نقد موقف إدوارد سعيد من الاستشراق، ومنهجه في النقد.

منهج البحث:

سيتناول الباحثُ الدراسة باستخدام المنهج التحليلي، والاستنباطي، والنقدي: من خلال تحليل النتاج العلمي لإدوارد سعيد، واستنباط منهجه في نقد الاستشراق، ومناقشة أبرز الانتقادات الموجهة له، ونقد موقف إدوارد سعيد من الاستشراق، ونقد منهجه النقدي.

أما الترجمة التي اعتمد عليها الباحث فهي ترجمة الدكتور محمد عناني لكتاب «الاستشراق»؛ لأنه من أبرز المتخصصين في ترجمة الكتب، ولأنه ترجم عدة كتب لإدوارد سعيد فهو مطلع على أفكاره، ولأن ترجمته حازت على قبول الباحثين والمتخصصين؛ لسهولة مفرداتها، ولأن الترجمة الأولى للدكتور كمال أبو ديب كانت متكلِّفة واستخدمتْ مصطلحات عسيرة، مما اضطره إلى تخصيص كشاف لمصطلحاته، ويقول في بدايته: «يضم هذا الكشاف عدداً من الكلمات والصيغ التي قد تبدو غير مألوفة للقارئ. ولكي يسهل استخدامه، يحسن بالقارئ حين يجد كلمة عربية في ترجمتي لا يتضح له ما تعنيه أن يعود إلى هذا الكشاف»(١).

وفي ختام هذه المقدمة أود أن أتحدث عن بعض الصعوبات التي واجهتني أثناء هذا العمل، ومنها:

١ ـ أنّ هذه الرسالة كُتِبت على مرحلتين وفي دولتين، بدأت الكتابة في مدينة «فانكوفر» الكندية ذات الطبيعة الساحرة، فقد مكثت فيها ما يزيد على العام لدراسة اللغة الإنجليزية؛ حتى أكون قادراً على التعامل مع الكتب الأجنبية، كتبت قسماً من الرسالة في أجواء هادئة تارة وصاخبة تارة أخرى، كتبت جزءاً

---

(١) الاستشراق، إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، (بيروت، دار الآداب، ط٢، ١٩٩٨م) ص٣٩٣.

على شاطئ «الإنجلش بي» أقرأ وأتأمل، مرة يأسرني إدوارد سعيد، ومرة يأسرني البحر والسحاب والرذاذ اللطيف، وأحياناً أكتب في ذلك المقهى اليهودي المجاور لبيتي هناك، حاولت جاهداً أن أشعر بما يشعر به المضطهد الفلسطيني وهو يعيش بين يهود، لم أطل الكتابة عندهم؛ فنظراتهم المريبة تجاهي كانت واضحة، ولم أحتج للحن القول حتى أبتعد. كتبت هذا الجزء من البحث في بلاد الغربة وما يعتري الغريب من الوجد والشوق إلى الأهل والأوطان.

وكتبت الجزء الآخر من البحث عند عودتي إلى بلادي حيث الاستقرار والراحة وهدوء النفس وقوة التركيز، فأنجزت في أشهر قليلة ما لم أنجزه في عام هناك!

٢ ـ ومن الصعوبات ـ أيضاً ـ تعدد الترجمات للكتاب الواحد، وأحياناً تعدد الكلمات للمصطلح الواحد ـ كما سيأتي ـ مما جعلني أتأمل في المصطلح وأرجع ـ أحياناً ـ إلى الكتاب الإنجليزي لأعرف أدق الترجمات له.

٣ ـ ومن الصعوبات تداخل عدد من العلوم المتخصصة في هذه الدراسة، وهذا التداخل مفيد للباحث؛ لكثرة القراءة حول هذه العلوم المتنوعة، فقد كتب الباحث حول الاستشراق، والاستعمار والإمبريالية، ومدارس النقد الأدبي، والمدارس الفلسفية والمذاهب المعاصرة، وعلوم القرآن والحديث. ومن كان له الغنم فعليه الغرم، فكل هذا التداخل بين هذه التخصصات جعلني أمام تحدٍ كبير، يتمثل في هذا السؤال: كيف أوازن بين أهداف الدراسة وبين مناقشة تخصصات مختلفة كُتب حولها مؤلفات متعددة؟ فقد اجتهدت أمام هذه الصعوبة أن يكون البحث مركَّزا وعميقاً يحقق الأهداف ويجيب عن تساؤلات الدراسة، ويناقش المسائل الفرعية في إطار الأهداف المحدّدة، دون استطراد وتوسع في مناقشة أهداف فرعية، حسبي أنني بذلت وسعي والتوفيق من الله ـ تعالى ـ.

٤ ـ وسأشير إلى صعوبة لم تواجهني ـ فحسب ـ بل واجهت كل عربي شرقي يقرأ لإدوارد سعيد، فقد كَتَب سعيد للغرب ولم يكتب للشرق، كتب يخاطب العقل الأوروبي والأمريكي؛ لذلك كتابته مليئة بأسماء وكتب ومقالات لا يهتم لها القارئ العربي، وهذا السبب ـ من وجهة نظري ـ من أهم أسباب العزوف عن قراءة كتب سعيد في البلاد العربية.

٥ ـ وأشد هذه الصعوبات على الباحث، والتي أثرت كثيراً على وضعه

النفسي؛ اشتداد المرض على أبي ﷺ، فكنت أعيش معه آخر أيامه مستشعراً إمكانية الفراق في أي لحظة، وأعيش مع الرسالة في أوقات متفاوتة، فكم تمنيت أن أحتفل معه في مناقشتها، لكن قدر الله سابق وأمر الله نافذ، فتوفي ﷺ بعد إخباري له أنني أنجزت البحث كاملاً بيوم واحد فقط، فالحمد لله على تقديره، وأسأله سبحانه أن يلحقني به في الفردوس الأعلى من الجنة.

وقبل الشكر والختام أحب التنويه إلى أن هذا الكتاب هو بالأصل رسالة دكتوراه تقدمت بها إلى جامعة الملك سعود، وكان عنوان الرسالة «منهج إدوارد سعيد في نقد الاستشراق والانتقادات الموجهة له ـ دراسة تحليلية نقدية»، وقد اجتهدت في تهذيبها وحذف ما لا يحتاجه القارئ منها وكما اختصرت عنوانه إلى «الاستشراق عند إدوارد سعيد ـ رؤية إسلامية».

وفي الختام أتقدَّم بالشكر الجزيل بعد شكر الله ـ تعالى ـ لجامعة الملك سعود، ممثلة بكلية التربية ـ قسم الثقافة الإسلامية ـ على إتاحة الفرصة لي لإكمال دراستي في مرحلة الدكتوراه، وأشكر كل من أعانني على إتمام هذه الدراسة، وعلى رأسهم مشرف هذه الرسالة الأستاذ الدكتور: عبد الله بن صالح البراك، رئيس قسم الثقافة الإسلامية، وأستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بالقسم، فقد كان خير معين على إتمامها، ولخبرته الأكاديمية وحسن تعامله أثر في الرسالة وكاتبها، فشكر الله سعيه، وبارك في علمه، وجعل ما قدَّم في موازين حسناته.

كما أشكر الأستاذ الدكتور: سليمان بن قاسم العيد، أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بقسم الثقافة الإسلامية بكلية التربية، والدكتور: محمد بن سعيد السرحاني، عميد كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، على تفضلهما، وموافقتهما لمناقشة الرسالة، فشكر الله لهما، ونفع بعلمهما.

إنَّ هذه الرسالة عمل بشري يعتريه الصواب والخطأ، فما كان فيه من رأي صواب فمنَّة من الله ـ تعالى ـ وحده، وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يتجاوز عن خطئي وتقصيري، وكما أسأله ـ سبحانه ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم، وأن تسدَّ ثغرة في الدراسات الاستشراقية، وأن تكون سبيل هداية لمن يريد معرفة الإسلام بعدله ورحمته وأمانته وصدقه، اللَّهُمَّ اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئ الأخلاق

لا يصرفُ عنا سيئها إلا أنت، اللَّهُمَّ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نشأة إدوارد سعيد، وحياته الأسرية والعلمية ومؤلفاته

في مطلع شهر سبتمبر من عام ١٩٩١م، دعا إدوارد سعيد مثقفين وناشطين فلسطينيين إلى إقامة ندوة في لندن عشية مؤتمر مدريد، في أعقاب حرب الخليج، محاولةً منه لدفع المسيرة إلى الأمام نحو تحقيق حقوق الفلسطينيين وتقرير مصيرهم. في هذه الظروف، وفي إحدى الاستراحات المقررة أتاه خبر مؤلم حول وضعه الصحي، يخبره طبيب العائلة بأنه مصاب بسرطان الدم اللمفاويّ المزمن[١].

قام بعلاجه الدكتور: «كانتي راي»، والذي يذكّره بين الحين والآخر بأنه قد يحتاج إلى علاج كيميائي، وفي آذار/مارس ١٩٩٤م باشر ذلك العلاج، ثم عقد العزم على كتابة سيرة حياته، ومحطات الألم التي عانى منها وهو مشرد ومنفي، ويقول عن نفسه: «أدركت أني دخلتُ إنْ لم يكن المرحلة الختامية من حياتي، فعلى الأقل المرحلةَ التي لا عودة منها إلى حياتي السابقة، مثلي مثل آدم وحواء عندما غادروا الجنة، وفي أيار/مايو ١٩٩٤م بدأتُ العمل على هذا الكتاب»[٢].

«خارج المكان» كتابه الذي كشف فيه عن تفاصيل دقيقة حول حياته ونشأته وتنقلاته، ويوحي هذا العنوان بأن إدوارد سعيد عاش خارج مكانه فهو الفلسطيني المنفي عن بلده، ويقول عن غربته: «والآن لم يعد يهمني أن أكون سوياً وفي

(١) خارج المكان، إدوارد سعيد، ترجمة: فواز طرابلسي، ط١، (بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٠م) ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٨ ـ ٢٦٩، وانظر: دفاعاً عن إدوارد سعيد، فخري صالح، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٠م)، ص٩١.

من تناقض سبب له حرجاً كبيراً، «إدوارد» الإنجليزي و«سعيد» العربي اجتمعا في شخص واحد ليجعلا منه شخصاً متردداً خجولاً في غير مكانه دائماً، يقول عن نفسه: «هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على «إدوارد» وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الإنجليزي الأخرق الذي وُضِع كالنير على عاتق «سعيد» اسم العائلة العربي القح.. وخلال سنوات من محاولاتي المزاوجة بين اسمي الإنجليزي المفخَّم وشريكه العربي، كنتُ أتجاوز «إدوارد» وأؤكد على «سعيد» تبعاً للظروف، وأحياناً أفعل العكس، أو كنتُ أعمد إلى لفظ الاسمين معاً بسرعة فائقة بحيث يختلط الأمرُ على السامع، والأمر الوحيد الذي لم أكن أطيقه، مع اضطراري إلى تحمله، هو ردود الفعل المتشككة والمدمِّرة التي كنت أتلقَّاها: إدوارد؟ سعيد؟»[(١)].

عائلته العربية حاولت جاهدة إيهام نفسها بأنها عائلة غربية، يقول عن ذلك: «كل ذلك أبرز النوعية الاصطناعية لماهيتنا: أسرة تصرُّ على افتعال تصوير نفسها بأنها جماعة أوروبية صغيرة، على الرغم من بيئتها المصرية والعربية»[(٢)]. اضطراب وحيرة وقلق يسببه هذا الازدواج الثقافي الذي يرمز له اسمه.

ينتسب إدوارد إلى عائلة نصرانية، مكوَّنة من سبعة أشخاص: أبويه وأربع شقيقات وهن: «روزماري» و«جين» و«جويس» و«غريس»[(٣)]، وأمه «هيلدا» (١٩١٤ ـ ١٩٩٠م)[(٤)].

يشكك الكاتب اليهودي الأمريكي «جستس رايد فاينرل» في صحة نشأة إدوارد سعيد في فلسطين[(٥)]، ورد عليه عدد من الكتاب، وكان من أبرزهم الكاتب البريطاني «كريستوفر هيتشنر»، وبيَّن زيف هذا الادعاء وأهداف الهجوم

(١) المرجع السابق، ص٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٧.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٦.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٣٦، ٣٨، ١٠٦، ١٧٣، وانظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، علي خليل حمد، (رام الله، مركز رام الله لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٧م) ص٢٣.

(٥) بيتي العتيق الجميل وأكاذيب إدوارد سعيد، جستس رايد فاينر، مجلة كومنتري، عدد شهر أيلول، ١٩٩٩م، المقالة مترجمة في كتاب: دفاعاً عن إدوارد سعيد، ص٣١ ـ ٥٨.

على إدوارد سعيد[١].

ولِدتْ أمه «هيلدا» في فلسطين، وتندرج من عائلة لبنانية متدينة، فكان أبوها «يوسف بدر» أول قسيس إنجيلي مقيم في لبنان[٢].

علاقة إدوارد بأمه علاقة عاطفية تحيط بها المحبة من كل جوانبها، ويقول عن هذا الترابط: «المؤكد أن أمي كانت الرفيق الأقرب إليَّ والأكثر حميميةً خلال ربع قرن من حياتي»[٣]، وبالضد كانت علاقته بوالده «وديع» (ت: ١٩٧١م)[٤]. والذي غيَّر اسمه إلى «وليام»[٥]، بعد تسلحه بالجنسية الأمريكية ـ كما وصفه إدوارد ـ في عام ١٩٢٠م[٦]، عامله والده معاملة قاسية في طفولته وكِبَره، مما جرأه على وصف والده بالوقاحة تارة[٧]، وبالكذب تارة أخرى[٨]، كان أبوه قاسياً جداً معه ومنشغلاً عنه، فإدارة مراكزه التجارية أولى منه دائماً، يقول: «وعندما أرافقه يبدأ الرحلة من البيت بمزاج بيتي ـ إذا جاز التعبير ـ مستجيباً لحديثي، إلى حد ما، بل قد يتكرَّم عليَّ بابتسامة، إلى أن نبلغ «جسر البولاق» الذي يصل إلى الزمالك باليابسة، وإذَّاك ينكمش تدريجياً ويصمت، ثم يتناول أوراقاً من حقيبته ويأخذ يراجعها، ومع وصولنا إلى تقاطع «الإسعاف» و«المحاكم المختلطة» على تخوم المركز التجاري الأوروبي، يكون قد انغلق دوني كلياً، فلا يجيب على أسئلتي بل لا يكاد يعترف بوجودي، هكذا يتحول أبي إلى ربِّ عمل مهيب؛ أيْ: إلى شخصية ما لبثت أن كرهتها وخشيتها»[٩].

مرت طفولة إدوارد ومراهقته بمشكلات نفسية، فالتعامل القاسي من والده

(١) مدرسة كونتري في التزييف، كريستوفر هيتشنز، مجلة: ذا نيشن، ٧ أيلول، ١٩٩٩م. المقالة مترجمة في كتاب: دفاعاً عن إدوارد سعيد، ص٧٧ ـ ٨١.
(٢) انظر: خارج المكان، ص٢٧، ٣٨، ٣٦.
(٣) المرجع السابق، ص٣٥.
(٤) المرجع السابق، ص٣١، وانظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٢١.
(٥) انظر: خارج المكان، ص٢٨، وانظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٢٢.
(٦) انظر: المرجع السابق، ص٣٣.
(٧) انظر: المرجع السابق، ص٢٨.
(٨) انظر: المرجع السابق، ص٣٢، ٤٢.
(٩) المرجع السابق، ص٤٨.

وتدخله في كل شيء، حتى قوام جسمه جعله كئيباً وعديم الشخصية وفاقداً للإرادة، يقول عن ذلك: «كان أبي هو الذي بادر تدريجياً إلى محاولة إصلاح جسدي، بل وإعادة تكوينه من الأساس، على أن أمي نادراً ما اعترضتْ على ذلك، بل أخذت تدور بجسدي بانتظام من طبيب إلى آخر، وإذ أستذكر وعيي لجسدي منذ سن الثامنة فصاعداً، أراه منحبساً في نظام صارم من التصحيحات المتكررة، تمت كلُّها بأمر من أهلي، وأدى معظمها إلى تفاقم نقمتي على ذاتي»[١].

فقد عانى كثيراً من سوء تربية والده له وتدخله في تفاصيل حياته، وفي كلام إدوارد عن والده ما يوضح لنا العقلية النقدية والأسلوب النقدي لإدوارد، فقد انتقد والده بألفاظ جارحه، أذكرها هنا لتوضيح أنه ينتقد أقرب الناس إليه بطريقة قاسية، يقول عن معاناته تلك: «على أن أطول عملية إصلاح وأكثرها إخفاقاً كانت تلك التي تتعلق بقامتي، وقد أضحت هوس أبي وموضوعه الأثير، عند بلوغي المراهقة. وفي حزيران/يونيو ١٩٥٧م، عندما تخرجت من جامعة «برينستون»، بلغ الأمر ذروته عندما أصرَّ أبي على أخذي إلى صانع حمّالات ومشدّات في «نيويورك» يشتري لي نيراً أرتديه تحت قميصي، وأكثر ما أحبطني في تلك التجربة هو أني، وقد بلغتُ الحادية والعشرين لم أعترض على كون أبي قد خوَّل نفسه يحزمني مثلَ طفلٍ شقيٍّ ترمز قامته الملتوية إلى ماهية ذميمةٍ تستحق عقاباً أليماً»[٢]، ولم يكتفِ والده بهذا الحد بل ضربه وهو في دراساته العليا، قال عن هذه الحادثة: «أسفت لقوته وضعفي أسفاً لا تستطيع الكلمات التعبير عنه، ولكنْ لم يصدر عني ردٌّ أو احتجاج حتى عندما اعتدى عليَّ بالضرب المبرِّح على نحو مُهين وأنا طالبُ دراسات عليا في «هارفارد»، عقاباً على وقاحتي»[٣].

ويقول إدوارد واصفاً الحاجز النفسي بينه وبين والده: «وقد ظللت أنادي أبي «دادي» إلى حين وفاته، على أني كنت أشعر دائماً أنها تسمية عَرَضيةٍ

(١) المرجع السابق، ص٩٢.
(٢) المرجع السابق، ص٩٤.
(٣) المرجع السابق، ص٩٦.

وأتساءل ما إذا كان يجوز أصلاً أن أعتبر نفسي ابنه؟! فأنا لم أطلب منه طلباً دون توجس كبير وساعات من الإعداد المحموم، وأبشع ما قاله لي إطلاقاً ـ وكنت في الثانية عشرة ـ هو: «إنك لن ترث مني شيئاً، أنت لست ابن رجل ثريٍّ»، مع أني كنتُ فعلاً ابنَ رجل ثريٍّ، وعند وفاته تبين أنه أوصى لأمي بكل ثروته»[١].

تحدَّث عن حبه لعائلته وسخاء والده وإنفاقه على دراسته، ومع كل هذا لم يغفر له تدخل والده في جسده: «ولكني لن أستطيع أن أغفر له، أن ذلك التنازع على جسدي، وفرضه الإصلاحات والعقوبات الجسدانيةَ عليه، رسَّخا لدي شعوراً عميقاً بالخوف العميم الذي قضيتُ معظم حياتي أحاول التغلُّب عليه، وما أزال أفكر أحياناً أني جبان، تتوعدني كارثةٌ جبارة ضامرة تتحفز للانقضاض عليَّ بسبب ذنوبٍ ارتكبتُها وسوف أُعاقب عليها لا محالة في القريب العاجل»[٢].

وهذا الشعور السلبي المتمثل في ضعف شخصيته مع والده، وفقدانه الثقة في ذاته ظاهر في حديثه عن نفسه، فمما قال:

- «هكذا فقدت تدريجياً الثقة بالنفس وحلَّت محلها هشاشةُ شعوري بالأمان تجاه الذات والمحيط»[٣].

- «فأستنتج من ذلك أني لا أتمتع بالقوة المعنوية اللازمة لبذل قصارى جهدي، كنت ضعيفاً بكل ما تعنيه الكلمة»[٤].

- «لا أزال إلى الآن أجد صعوبة لا تطاق في أن أشاهد ذاتي على شاشة التلفزة، بل حتى أن أقرأ ما يُكتبُ عني»[٥].

- «كما تجسَّد في ذلك المشهد المسرحي بامتياز، مثل شرخٍ جديدٍ ذي طاقة تدميرية عظيمة، إلى بنية «إدوارد» الهشة والمتخلخلةِ أصلاً»[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢.
(٢) المرجع السابق، ص٩٦، ٩٧.
(٣) المرجع السابق، ص٧٤.
(٤) المرجع السابق، ص٧٩.
(٥) المرجع السابق، ص٨٥.
(٦) المرجع السابق، ص١٠٦.

هذا الشعور الكئيب لذاته أصابه برعشة غير إرادية إذا همَّ أن يبول، وبعد عرضه على أخصائي طب الأطفال قال: «لعلها ذات أصل نفساني»[١]؛ أي: عنده مشاكل نفسية سببت له هذه الرعشة.

استطاع إدوارد أن يقاوم الآثار النفسية التي لحقت به بسبب العنف الأبوي إلى أن يكون صاحب مشروع فكري وسياسي، ولم يستسلم لنداءات النفس الضعيفة بل انتصر عليها، وأنشأ مقعده بين كبار المفكرين.

قد كان صريحاً في مذكراته، ووصف حياته بمشكلاتها وآلامها ومتعها وتناقضاتها وصفاً دقيقاً، لم يمتدح نفسه كثيراً، ولم يركِّز على جوانب قوته، حتى أضحى كتابه لوحةً مطرزة بمعاناته وآلامه والتناقضات التي عاشها في محيطه.

تربيته الدينية:

عاش إدوارد في كنف أسرة تندرج من عائلات نصرانية متدينة، فجده من أمه أول قسيس بروتستانتي إنجيلي مقيم في لبنان[٢]، وقد أرسل ابنته «هيلدا» ـ أم إدوارد ـ إلى مدرستين دينيتين للتعلم فيهما[٣].

واستغل جده منصبه الديني ليتوسط لابنته «ميليا» ـ خالة إدوارد ـ لتُدرِّس في الكلية الأمريكية للبنات في القاهرة، والتي يصفها إدوارد بأنها: «مؤسسة إرسالية أساساً»[٤]، وبهذا نرى أن أخواله متدينون، وأصحاب مناصب كنسية.

عائلة إدوارد كانت فاعلة في الوسط النصراني، فوالده هو الرئيس الفخري لجمعية الشبان المسيحيين[٥]، وهذه العلاقات والأصول الدينية للعائلة أثرت في تربيتهم لأولادهم، يقول إدوارد: «كان يوم الأحد يعني لنا «مدرسة الأحد» تلك المحنة العبثية الواقعة بين التاسعة والعاشرة صباحاً في إعدادية الجزيرة، يليها القدَّاس الصباحي في «كاتدرائية جميع القديسين». أما في أماسيِّ الأحد فكنتَ تجدنا في كنيسة الإرسالية الأمريكية في الأزبكية، نتلو ـ كل أحدَيْن أو ثلاثة آحاد

(١) المرجع السابق، ص٩٣.
(٢) انظر: خارج المكان، ص٢٧، ٣٦، ٣٨.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٧.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٣٨.
(٥) انظر: المرجع السابق، ص١١٥.

ـ صلاة المساء في الكاتدرائية ذاتها. المدرسة، الكنيسة، الحديقة، البيت، كان هذا الحيِّزُ المحصور والمحدَّد بدقةٍ من هذه المدينة الجبارة يختصر عالمي كله حتى سنوات متأخرة من مراهقتي»[١]، هذه العائلة المعزولة عن محيطها بسبب غربتها عن بلدها الأصل، بالغتْ في تربيتها أولادها تعاليم الكنيسة حتى أصبح هوساً عندها، مما جعل إدوارد يشعر بأنه في غير مكانه دائماً.

ويذكر إدوارد قصة سؤاله لأمه عن الحمل والولادة، فكانت تعتمد الجواب نفسه دائماً: «كتبنا رسالة إلى «يسوع» فبعث إلينا بطفل!»[٢]. إذن توجيهات دينية حتى في أدق التفاصيل.

ومن الأشخاص الذين أثروا في تربيته الدينية عمته «نبيهة»[٣]، ويصفها بأنها عرَّابته فهي التي فتحت له آفاق الحرص على حقوق الفلسطينيين، يقول عنها: «ونشأت بيني وبين عمتي علاقة مميزة ـ وهي أيضاً عرَّابتي ـ تظهر في التعبير عن العاطفة المتبادلة على نحو يكاد يكون محرجاً.. بفضل عمتي نبيهة اختبرت فلسطين أول الأمر تاريخاً وقضيةً من خلال الغضب والاستنكار اللَّذين أثارهما فيَّ عذابُ اللاجئين»[٤]، وكانت تعالج المرضى الفلسطينيين في بيتها، وصرَّح إدوارد بدعم الكنيسة لها[٥]، ومن الواضح أنه يعيش في وسط نشاط تنصيري من خلال دعم الكنيسة، ويؤكد ذلك أن زوجة الدكتور «حدَّاد» المقرَّب من العائلة كانت تستغل الفرص لأجل التنصير، يقول: «وأما زوجته «إيداء» السويدية الألمانية النحيلة، فهي صيغة مُبكرة عمن نسميهم الآن «المهووسين بالمسيح» إذ تستغل فرصة وجود مرضى زوجها، ومعظمهم من المعوزين ينتظرون بقلق دورهم للمعاينة؛ لتحدثهم عن مريم العذراء، ويوسف وطفلهما «يسوع».. فقد كانت تدعوهم من قارعة الطريق إلى غرفة الجلوس، ثم تطفئ الأنوار وتتحفهم بعرضٍ للشرائح الفوتوغرافية الملوَّنة، وتروح تحكي برتابة لا متناهية عن العائلة المقدسة

---

(١) خارج المكان، ص٤٧، ٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٢.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٨٨، وانظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٢٥، ٢٦.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٨.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص١٦٠.

والخلاص والفضائل المسيحية»[١]، ثم يشير إلى عدم قبول الناس لتحويلهم من الإسلام إلى النصرانية، وكان يصف نشاط المنصرة «إيداء» بشيء من الاحتقار والسخرية، ويصف عمته بأنها تعالج الناس ولا تريد منهم تغيير دينهم.

يملك إدوارد عقلاً ناقداً لما يمرُّ به من أحداث، فيعبر عن نفرته من الكنيسة لقداديسها القاتمة العصيَّة على الفهم ـ كما يعبِّر ـ[٢]، وينتقد أخواله المتدينين؛ لأنهم يحملون فكراً تصادمياً عن الإسلام، ثم يذكر شهادة هامة جداً حول علاقة البروتستانت بأمريكا، وكذلك موقفه من الإسلام، فيقول: «وقد ظل آل بدر ـ أخواله ـ وأبناء فروعهم البروتستانتيون في فلسطين، تابعين للإرسالية البروتستانتية الأمريكية في لبنان، ويتبنون ـ أيضاً ـ تفسيراً صدامياً، بل عدوانياً، لمعنى أن يكون المرء مسيحياً في الديار الإسلامية.. وقد عززوا انتسابهم المذهبي من خلال زيارات متكررة إلى الولايات المتحدة ومتابعة دراساتهم العليا فيها، وإني أرى الآن، في نظرة استرجاعية، ضرورة أن أضيف إلى ذلك تماهيهم الوثيق جداً مع الآراء الأمريكية عن الإسلام بوصفه ديانةً منحرفةً غير قابلة للتجديد.. مع أني إلى يومنا هذا وبعد سنوات من الاقتتال الأهليّ، أعترف بعجزي عن الشعور بأيّ تماهٍ على الإطلاق مع الفكرة القائلة بأن المسيحية ديانة يهدِّدها الإسلام»[٣].

إن النشأة الدينية المحافظة التي تربى عليها إدوارد لم تؤثر في حياة إدوارد المفكر، فأصبحت علاقته مع الأديان علاقة متوترة، مع أنه يدافع عن الإسلام من جهة أنه دين تعرض للظلم والتشويه، كما سيتبين في الفصول القادمة.

تعليمه:

كان والد إدوارد حاصلاً على الجنسية الأمريكية، وهذا ما أعطاه مميزات لم تكن لغيره في ذلك الوقت، وكان مهتماً ببناء أسرة أمريكية الولاء رغم أصولها العربية، لذا حرص والده على تعليمه في المدارس الأجنبية، وسأشير ـ باختصار ـ إلى المدارس التي درس فيها إدوارد، وهي على الترتيب الآتي:

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٥١، ٢٨٩.
(٣) المرجع السابق، ص٢١٣.

■ **إعدادية الجزيرة:**

بدأ دراسته عام ١٩٤١م في إعدادية الجزيرة، التابعة للمجلس الثقافي البريطاني، والتي تقع في حي الزمالك[١]، ويبدي إدوارد امتعاضه وكرهه للإنجليز وغربته بينهم، ويؤرِّخ إدوارد بأن هذه المدرسة هي أول اتصال بينه وبين الإنجليز، يقول: «وقد منحتني إعدادية الجزيرة اختباري الأول لنظام مُحكَم أنشأه البريطانيون كمهمة كولونيالية[٢]. كان الجوُّ جوَّ طاعة عمياء يؤطِّرها إذعانٌ بغيض عند المعلمين والتلامذة على حد سواء. ولم تكن المدرسة مثيرة بما هي مكان للعلم، ولكنها زوَّدتني بأول اتصال مديد مع السلطة الكولونيالية من خلال الإنجليزية القحة لأساتذتها وللعديد من التلامذة. ولم تكن لي علاقات متصلة بأولاد الإنجليز خارج المدرسة، ذلك أن حَبل سُرَّة سرِّياً كان يجمعهم ويخفيهم في عالم آخر مغلق عليَّ، فأدركت تمام الإدراك كيف أن أسماءهم صحيحة تماماً، وملابسهم ولكناتهم ومعاشراتهم مختلفة كلياً عن ملابسي ولكنتي ومعاشرتي، ولا أذكر أني سمعتُ أيّاً منهم يشير مرة إلى الوطن غير أني ربطتُ فكرة الوطن بهم، وإذا الوطن بمعناه العميق هو ما أنا مستبعد عنه، وعلى الرغم من أني لم أكن أحبّ الإنجليز أساتذة أو نماذج أخلاقية، فإني لم أرَ في

---

(١) المرجع السابق، ص٦٤، وانظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٢٨.

(٢) كولونيالية: هي كلمة إنجليزية (colonialisation)؛ وتعني: الاستعمار، والاستعمار نوعان:

١ ـ الاستعمار الاستيطاني: وفيه يتم الاستيلاء على الأرض بمزاعم عديدة، منها: أحقيتهم وملكيتهم لها، أو بالشراء الصوري، أو الحقيقي، أو بالحرب، وعادة ما يتسم الاستعمار الاستيطاني بممارسة ضروب التميز العنصري ضد أهل البلاد.

٢ ـ الاستعمار الجديد: ويتمثل في فرض السيطرة الأجنبية سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً على دولة ما، مع الاعتراف باستقلاليتها وسيادتها، دون استخدام أساليب الاستعمار التقليدية، من خلال عقد اتفاقيات ثنائية غير متكافئة، تحد من حريات الدول وتكبلها، وتستغل مشكلاتها الاقتصادية، والإدارية للتدخل في شؤونها، والضغط عليها من خلال القروض والمعونات المشروطة، وإقامة القواعد العسكرية، وإثارة الاضطرابات الداخلية سواء كانت طائفية أم عرقية أم إقليمية.

انظر: الموسوعة الميسرة، ٢/٩٥٤، وانظر: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار: دراسة وتحليل وتوجيه، عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني، ط٨، (دمشق، دار القلم، ١٤٢٠هـ) ص٥٤.

وجودهم في طرف الشارع أمراً غريباً أو باعثاً على القلق»[١]. يكرر بغضه للإنجليز كثيراً فلم يعجبه تسلطهم عليه، وعنصريتهم تجاهه، وإن بدا أمريكي الجنسية، فأصوله العربية تلاحقه في كل مكان يتواجد به الإنجليز.

وقد تعرض لمواجهة كولونيالية قاسية في نادي الجزيرة من والد أحد زملائه في المدرسة، عندما نهره وقال له: «يا ولد، غادر المكان فقط، وغادره بسرعة، ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان، وأنت عربي!»[٢]. كان غريباً في بيئة حاول والده أن يقنعه بها، ولكن لم تتقبل تلك البيئة طفولته.

■ **مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين:**

ثم درس في مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين عام ١٩٤٦م، والتي تقع في حي المعادي، وقد تأسست بعد الحرب العالمية الثانية، لاستيعاب أبناء موظفي شركات النفط ورجال الأعمال والسلك الدبلوماسي الأمريكيين[٣]، لذا انضم إدوارد للمدرسة بصفته ابن رجل أعمال أمريكي، وهو لا يملك أدنى شعور بالانتماء إلى أمريكا[٤].

وجاءت اللحظة الأكثر إذلالاً في عامه الأول بعد توبيخ إحدى معلماته له ووصفه بأنه أسوأ من شاهدت في حياتها، يصف إدوارد شعوره في هذه اللحظات: «تخيلتهم يتساءلون: إنه مجرد صبيٍّ عربيٍّ مسكين، فما الذي جاء به إلى مدرسة للأطفال الأمريكيين؟! ومن أين جاء؟!»[٥]. ويقتنص إدوارد الفرص ليصف كرهه للإنجليز والأمريكان، وسوء تعاملهم مع العرب، وإن تسلحوا بالجنسية الأمريكية.

■ **مدرسة «سان جورج»:**

والتحق في مدرسة سان جورج في القدس عام ١٩٤٧م، بعد أن سافر مع عائلته إلى القدس، وقد فاتته عدة شهور من المدرسة الأمريكية، ويصف سعادته

---

(١) خارج المكان، ص٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص٧٢.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص١١٤.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص١١٣.
(٥) المرجع السابق، ص١٢٠، ١٢١.

■ **مدرسة «ماونت هيرمون»:**

في عام ١٩٥١م انتقل إلى أمريكا ودرس في مدرسة «ماونت هيرمون»، والتي أسسها الإنجيلي «دوايت إل. مودي» في أواخر القرن الثامن عشر، ويتحدث إدوارد عن العنصرية ضده في هذه المدرسة يقول: «فخلال دراستي في «ماونت هيرمون»، لم أعيَّنْ مرةً خفيرَ طابقٍ أو رئيسَ مائدة أو عضواً في مجلس الطلبة أو الأول، أو حتى الثاني في الصف، مع أني كنتُ جديراً بذلك، وذلك لأسباب لم أعرفها قط، فسرعان ما اكتشفت ضرورة الاحتراس من السلطة وحاجتي إلى بلورة آليةٍ ما، أو اندفاع معيّن حتى لا أفقد الأمل بسبب ما اعتبرته جهوداً مبذولة لإسكاتي أو حرفي عن أن أكون مَنْ أنا، لأصير مَنْ يريدونني أن أكون، وأثناء ذلك بدأتُ نضالاً سوف يستمر طوال حياتي لفضح الانحياز والخبث الكامنين في السلطة التي تعتمد في مصادر قوتها اعتماداً مطلقاً على صورتها الأيديولوجية عن ذاتها بوصفها فاعلاً أخلاقياً يتصرَّف بقصد شريف وبنيوياً لا يرقى إليه الشك»[(١)].

وفي هذه المدرسة حصل له موقف أثر في مسيرته الفكرية، وفتح أمامه آفاقاً جديدة، عندما كلَّفه أستاذه «بولدوين» ببحث حول إشعال عود كبريت، وبعد تحمل للواجب والبحث والكتابة يقول إدوارد: «وقدَّمت البحث وأنا فخور جداً بما جمعته، فطلب «بولدين» للتوّ أن أجيء لمقابلته خلال ساعات دوامه في المكتب.. وإذ جلسنا متجاورين على كرسيين مريحين، هنأني على بحثي، «ولكن هل هذه هي الطريقة الأكثر إثارةً لدراسة ما يحصل عندما يُشعِل المرء عود كبريت؟ ماذا لو سعى لإشعال حريق في غابة، أو إضاءة شمعة في قبو، أو اصطلاحياً إضاءة لغز مثل لغز الجاذبية، كما فعل نيوتن؟»، ولأول مرة في حياتي شرَّع لي أستاذٌ آفاقَ موضوع بحثي بطريقة استجبتُ لها فوراً وبحماس، فاستيقظ لدي كل ما كان سابقاً مقموعاً ومخنوقاً في الدراسة الأكاديمية...»[(٢)].

وفي هذه المدرسة لم تتوقف محاولات أمركته، وهو يقاوم كل هذه المحاولات، ويعبِّر إدوارد عن حزنه: «أحزنني كثيراً أني منذ مطلع كانون الأول/

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٥، وانظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٣٠.

(٢) خارج المكان، ص٢٨٦.

معظمها، وتولدت عنده فكرة المثقف والأستاذ الجامعي[١].

وفي هذه الجامعة نشر أول نص سياسي في صحيفة الجامعة، وتحدث فيه عن وجهة النظر العربية تجاه إسرائيل، وفي هذه الفترة تعرَّف على التيارات السياسية الدارجة، والتي أثرت في منظوره الفكري والسياسي[٢]. وشعر في أواخر دراسته الجامعية بمزيد من التناقض وعدم النضج، يقول: «خلال القسم الأخير من دراستي في «برنستون» اكتشفت أني كائن غير ناضج، ومتردد، ومتخبِّط، ومتعدد الشخصيات، أنا العربيُّ، وعازف الموسيقى، والمثقف الشاب، والهامشيُّ المتوحِّد، والطالب المجتهد، والمشاغب سياسياً»[٣].

■ جامعة هارفارد:

وفي عام ١٩٦٣م نال شهادة الدراسات العليا في الآداب من جامعة هارفارد[٤]، وأطروحته عن «كونراد»[٥] (١٨٥٧ ـ ١٩٢٤م) أثرت كثيراً في بنيته العلمية وشخصيته الفكرية.

واستفاد من عدة كتب في أطروحته مثل: كتاب: «العلم الجديد» لـ«فيكو» (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤م)، وكتاب: «التاريخ والصراع الطبقي» لـ«لوكاش» (١٨٨٥ ـ ١٩٧١م)[٦]، ومؤلفات «سارتر»[٧] (١٩٠٥ ـ ١٩٦٤م)، و«هايديغر»

(١) انظر: المرجع السابق، ص٣٤٠، وانظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٣٠.
(٢) انظر: خارج المكان، ص٣٤١.
(٣) المرجع السابق، ص٣٤٣.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٣٥٢، وانظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٣٠.
(٥) للتعريف به انظر المبحث الثالث: «جوزيف كونراد»، ص٧١.
(٦) جورج لوكاتش: ولد في بودابست عام ١٨٨٥م، فيلسوف ومفكر ماركسي، له عدد من المؤلفات أهمها: «دراسات في الواقعية»، و«نظرية الرواية»، و«التاريخ والوعي الطبقي»، وتوفي فيها عن ستة وثمانين عاماً في الخامس من تموز ١٩٧١م. انظر: إدوارد سعيد مقالات وحوارات، تقديم وتحرير: محمد شاهين، (الأردن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٤م) ص١٨٣.
(٧) جان بول سارتر: فرنسي، زعيم المدرسة الوجودية الفرنسية، ولد في باريس عام ١٩٠٥م، وقد نالت فلسفته الوجودية شعبية واسعة، ومنح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٤م. ومن آثاره الروائية «الغثَيان»، ومن آثاره المسرحية «الذُباب»، و«الأيدي القذرة»، ومن آثاره الفلسفية «الوجود والعدم». توفي عام ١٩٨٠م.

(١٨٨٩ ـ ١٩٧٦م)[(١)]، وغيرهم[(٢)].

ويذكر أن قراءاته في تاريخ الموسيقى والأدب والفلسفة أسَّستْ لكلِّ ما حقَّقه في أبحاثه وتدريسه[(٣)]، ثم بدأ العمل أستاذاً للأدب المقارن في جامعة «كولومبيا» عام ١٩٦٣م[(٤)].

وأثناء فترة تدريسه في جامعة «كولومبيا» حدث أمر أثر في مسيرة حياته، يقول: «لم أعد الإنسان ذاته بعد العام ١٩٦٧م، فقد دفعتني الحرب إلى نقطة البداية، إلى الصراع على فلسطين، فدخلت من ثمَّ المشهد الشرق أوسطي المتحول حديثاً بوصفي جزءاً من الحركة الوطنية الفلسطينية التي انبثقتْ في عمَّان، ومنها انتقلتْ إلى بيروت في أواخر الستينيات وعلى امتداد السبعينيات»[(٥)]، وله إسهامات كثيرة في القضية الفلسطينية، ولسنوات طويلة كان إدوارد هو المتحدث الرئيسي باسم القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة، فعنده فلسطين قضية غير مجزية، فأنت لا تأخذ شيئاً في مقابل التزامك بها سوى الازدراء والاضطهاد والنبذ[(٦)]، ومع ذلك كانت هي مركز حياته.

فقد دفع الرجل ثمناً باهظاً لمواقفه، وتعرض لكثير من المضايقات، وحاولوا اغتياله في عدة محاولات، وأحرق مكتبه لتخويفه وتهديده، وكان لفترة

= انظر: معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، (بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٢م) ص٢٢٩.

(١) مارتن هايدبغر: فيلسوف ألماني، ولد عام ١٨٨٩م، درس في جامعة فرايبورغ تحت إشراف مؤسس، ثم أصبح أستاذاً فيها. وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود والتقنية والحرية والحقيقة وغيرها من المسائل، ويعتبر أحد أبرز ممثلي المدرسة الوجودية، فقد تميز بتأثيره الكبير على المدارس الفلسفية في القرن العشرين، التي من أهمها: الوجودية، التأويليات، فلسفة النقض أو التفكيكية، ما بعد الحداثة. وقد طوَّر «سارتر» بعض أفكاره، وتوفي عام ١٩٧٦م. انظر: معجم أعلام المورد، ص٤٧٠.

(٢) انظر: خارج المكان، ص٣٥٣.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٣٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٣٤٦.

(٥) المرجع السابق، ص٣٥٦.

(٦) انظر: إدوارد سعيد الثقافة والمقاومة، حاوره: دايفد بارساميان، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، (بيروت، دار الآداب، ط١، ٢٠٠٦م) ص١٣، ١٤.

محمياً من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي ألقى القبض ذات مرة على شخصين من المتطرفين اليهود وجدا في قبو بيته[١].

أما الموسيقى فلها أثرٌ ظاهر في فكر إدوارد، واهتمامه بها بدأ منذ صغره، تعلم البيانو في المدرسة الأمريكية[٢]، ودرس الموسيقى ـ أيضاً ـ في مدرسة «ماونت هيرمون» على يد شخص يدعى «هوميّ»[٣]، ثم واصل اهتمامه في الموسيقى وعزف البيانو حتى أصبح من المحترفين فيه، وقد أدخل الموسيقى في منهجه الكتابي فهو من استحدث مصطلحاً أسماه «القراءة الطباقية» ـ كما سيأتي بيانه ـ.

مسيرة إدوارد سعيد العلمية حافلة بالصدمات الحضارية، والتي أثرت في تكوينه الفكري والنفسي، وكانت عاملاً رئيساً في نشاطاته العلمية والسياسية.

مرضه ووفاته:

في مطلع سبتمبر من عام ١٩٩١م أُخبِر إدوارد سعيد بأنه مصاب بسرطان الدم اللمفاوي المزمن، وهو في إحدى استراحات ندوة أقيمت في لندن دعا لها المثقفون والناشطون الفلسطينيون عشية مؤتمر مدريد، ويقول إدوارد عن هذه اللحظات: «وسط هذه النقاشات، وخلال إحدى الاستراحات المقررة، خابرتُ زوجتي مريم في نيويورك مستفسراً عن نتائج تحليل الدم الذي أجريتُه لفحوصي السنوية، كنتُ منشغل البال بصدد مستوى «الكلستيرول»، فقالت لي: لا، كل شيء ممتاز من هذه الناحية، غير أنها أضافت مترددة: «شارل حزّي» ـ طبيب العائلة والصديق ـ يرغب في التحدث إليك عند عودتك، شيء في صوتها أوحى إليّ بأنَّ كل شيء ليس على ما يرام، فاتصلتُ فوراً بـ«شارل» في عيادته، لا شيء يثير القلق، قال: سوف نتحدث عندما تعود إلى نيويورك، دفعني رفضُه المتكرر إخباري ما الخطب إلى نفاد الصبر أخيراً: يجب أن تصارحني «شارل» أنا لست ولداً، ولي الحق في أن أعرف، ـ وبعد سلسلة كاملة من التملص ـ الأمر ليس خطيراً، وأي أخصائي في أمراض الدم يستطيع الاعتناء بك بكل سهولة، إنه

(١) انظر: إدوارد سعيد الثقافة والمقاومة، ص١٣، ١٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٣٣.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٨٧.

٦ ـ الأدب والمجتمع (١٩٨٠م)، غير مترجم.

٧ ـ العالم والنص والناقد عام (١٩٨٣م)، ترجمة: عبد الكريم محفوض (منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠م).

٨ ـ بعد السماء الأخيرة: حيوات فلسطينية (١٩٨٦م)، غير مترجم.

٩ ـ لوم الضحية تحرير مع كريستوفر هتشنز (١٩٨٨م).

١٠ ـ تنويعات موسيقية عام (١٩٩١م)، غير مترجم.

١١ ـ الثقافة والإمبريالية (١٩٩٣م)، ترجمه كمال أبو ديب (بيروت: دار الآداب، ط٢، ١٩٩٨م).

١٢ ـ القلم والسيف (١٩٩٤م)، حوارات مع: دافيد بارساميان، ترجمة: توفيق الأسدي (دمشق: دار كنعان، ط٣، ٢٠٠٧م).

١٣ ـ تمثيلات المثقف (١٩٩٤م)، وقد ترجم ثلاث ترجمات بأسماء مختلفة، الأولى تحت اسم: صور المثقف، ترجمة: غسان غصن، (بيروت: دار النهار، ١٩٩٦م)، والثانية باسم: الآلهة التي تفشل دائماً، ترجمة: حسام الدين خضور، (القاهرة ودمشق: دار الكتاب العربي، ودار تكوين)، والترجمة الثالثة تحت عنوان: المثقف والسلطة، ترجمة: د. محمد العناني (القاهرة: دار رؤية، ط١، ٢٠٠٦م).

١٤ ـ الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهه نظر أمريكية، القسم الأول من الكتاب كتبه برنارد لويس، والقسم الثاني كتبه إدوارد سعيد، دون مترجم، (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٤م).

١٥ ـ غزة أريحا: سلام أمريكي (١٩٩٥م)، مترجم.

١٦ ـ أوسلو: سلام بلا أرض (١٩٩٥م).

١٧ ـ تعقيبات على الاستشراق (١٩٩٦م)، ترجمة: صبحي حديدي، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٦م).

١٨ ـ خارج المكان (سيرة ذاتية)، ترجمة: فواز طرابلسي (بيروت: دار الآداب، ط١، ٢٠٠٠م).

١٩ ـ تأملات من المنفى (٢٠٠٠م)، ترجمة: ثائر ديب (بيروت: دار الآداب، ط١، ٢٠٠٤م).

قالوا عن إدوارد سعيد

كثيرون هم الذين تحدثوا عن إدوارد سعيد، ودبجوا عبارات الثناء عليه، ولا يمكن حصر كل هذه الكتابات أو كتابة كل ما توفر لدي منها، لكني ـ طلباً للاختصار ـ سأنقل بعضاً من أقوال المثقفين والمفكرين على اختلاف توجّهاتهم الفكرية، فيما يأتي:

● الأكاديمي والكاتب اليهودي المنصف «نعوم شومسكي» ـ صديق حميم لإدوارد ـ يقول عنه:

«كان لي إدوارد سعيد صديقاً حميماً وعزيزاً خلال سنوات عديدة. إن موته خسارة فادحة تتعدى بكثير دوائر الذين كان لهم امتياز معرفته. لقد اشتهر، عن جدارة، لمساهماته اللامعة في إنتاج ثقافي غيّر عملياً من طرائق رؤيتنا للعالم الحديث ولأصوله التاريخية. وكان يناضل بلا كلل ولا هوادة من أجل العدالة والحرية وحقوق الإنسان ليس للشعب الفلسطيني وحده ـ وهو الذي لا يُضاهى في النطق باسمه، محيياً آماله وقضيته في أزمنة مظلمة فاجعة ـ وإنما أيضاً للعديد غيره من الشعوب المحرومة والمعذبة في أرجاء العالم كافة. كان إدوارد سعيد حقاً صوت الذين لا صوت لهم. تتخطى شجاعته والتزامه كل حدود ويستعصيان على الوصف. وإني لواثق من أن ميراثه سوف يكون مصدر إلهام وقيادة لسنوات عديدة في المستقبل. وخير تكريم لهذا الشخص الرائع أن نسعى، بأفضل ما نستطيع، إلى مواصلة التقدم في الدروب التي فتحها ومهّدها بكامل تألقه ونزاهته[١].

(١) صديقي الحميم إدوارد سعيد.. وداعاً، نعوم شومسكي، ضمن كتاب إدوارد سعيد الطائر المهاجر، ص٤٩٩.

• ويتحدث عنه المفكر الإسلامي الدكتور: عبد الوهاب المسيري رحمه الله فيقول:

«أعتقد أن إدوارد سعيد كان عقلاً فذاً وخطابه ثوري... كشف كثيراً من جوانب التمركز حول خطاب الغرب، وفي دراساته العديدة الهامة مثل «الاستشراق»، و«الثقافة والإمبريالية» نجد أنها تحليل لنصوص تبين التحيزات الغربية الكامنة في الخطاب الغربي.

ولا شك أن في رحيله خسارة كبيرة للعالم العربي والإسلامي ولكل دعاة التحرر في العالم. فقد كان صوتاً فلسطينياً وعربياً فائق الروعة، وكان يفهم كيفية مخاطبة الغرب...؛ أي: أنه كان مؤسسة إعلامية بمفرده!!!»[(١)].

• ويقول عنه المفكر الدكتور: عبد الله الغذامي في مقالة له بعنوان: ضمير المثقف الإنسان:

«رجل بحجم أمة، حمل على كفه ضمير المثقف العالمي الإنساني، وتحدّى أعتى الظروف والعقبات، وأطل برأسه العملاق في عقر دار الرأسمالية والسلطوية والنفوذ المتعالي... إدوارد سعيد هو خلاصة رمزية لكل إنسان ذي ضمير حي، ولكل مضطهد، ولكل عقل حر. وموته يجب أن يكون حافزاً لنا لكي نتعلم من تجربته في المقاومة وفي المعارضة والمواجهة»[(٢)].

• ويقول عنه المفكر السوري صادق جلال العظم ـ وهو من أبرز المنتقدين لكتاب «الاستشراق» ـ:

«كان إدوارد سعيد هو مَنْ وضع في مرحلة الستينيات القضية الفلسطينية على الخارطة في بلد مثل الولايات المتحدة الأميركية، وهو الذي أدخلها في صلب وعي تلك المرحلة التي كانت مرحلة الانتفاضة، حتى داخل أمريكا نفسها، على المؤسسة الحاكمة التي كانت تشنّ حرباً على بلد مثل «فيتنام». فكان

---

(١) صوت فائق الروعة، عبد الوهاب المسيري، صحيفة المستقبل، العدد: ١٤١٠، الجمعة، ٢٦ أيلول ٢٠٠٣م، ص٢٠.

(٢) ضمير المثقف الإنسان، د. عبد الله الغذامي، صحيفة الحياة عدد: ٢٦/٩/٢٠٠٣م، وانظر الرابط:

http://international.daralhayat.com/archivearticle/29347.

له دور هائل في طرح القضية الفلسطينية بضوء جديد وفي كسب معايير متنوعة ومختلفة، ووقتذاك تمكّن من كسب الرأي العام المتمرّد اليساري الناقم إلى جانب القضية الفلسطينية، وما يتبعها من قضايا التحرّر وحقوق الإنسان في العالم أجمع»[١].

- ويقول الدكتور نصر حامد أبو زيد:

«إدوارد سعيد مثقف ينتمي إلى الحقيقة وضد تزييفها لأغراض سياسية، وهذا كان موضوعه الدائم؛ أي: الوقوف ضد خيانة العلم والمعرفة. وكان هذا موقفه الطبيعي ضد الاستشراق؛ أي: أن تسخّر المعرفة لاستغلال الشعوب. وهذا موقف إنساني يلتقي فيه مع العديد من المفكّرين الإنسانويين في الثقافات كافة. قاوم سعيد البحث العلمي الذي يستهدف الحقيقة خاصة بعد أيلول حيث تطوّع عدد من الأسماء المعروفة في عالم الفكر لجعل بحثهم العلمي في خدمة الإمبريالية الأميركية مباشرة، فتحوّل الأكاديمي هنا مستشاراً للسياسي، فكان سعيد ضمن التيار القوي النابذ لهذا التوظيف والمقاوم له. بهذا المعنى أن خسارة سعيد هي خسارة لخصم قوي لأمثال هؤلاء المثقفين. وقف سعيد مواقف سياسية نضالية واضحة، وسافر المسافات الطويلة من أجل هذا الغرض. خسارته إذاً هي على المستوى الشخصي، والمعرفي، والقومي؛ لأنه في النهاية كان عربياً، فهي خسارة فادحة على المستويات كافة»[٢].

- أما المفكر الإسلامي الدكتور: محمد حامد الأحمري فكتب مقالة وسمّاها بـ: إدوارد سعيد لو كان مسلماً لترحمنا عليه، جاء فيها:

«موقفه من قضايا المسلمين موقف منصف غالباً، وتُغيض مواقفه التيار الوصولي في الثقافة العربية المعاصرة؛ لأنه كان شديد القسوة على من يسميه بالمثقف الخائن، ويكثر من تكرار استخدام أحد الكتب الفرنسية المثيرة التي كتبت مطولاً عن خيانة المثقفين وتبعيتهم، وهنا نلاحظ ذلك الجانب المكروه

---

(١) العالم كله خسره، صادق جلال العظم، صحيفة المستقبل، العدد: ١٤١٠، الجمعة، ٢٦ أيلول ٢٠٠٣م، ص٢٠.

(٢) ينتمي إلى الإنسانية، د. نصر حامد أبو زيد، صحيفة المستقبل، العدد: ١٤١٠، الجمعة، ٢٦ أيلول ٢٠٠٣م، ص٢٠.

للوصوليين، وسوطه المرفوع الذي يجلد به ظهورهم، لم يكن يملك ما يخاف عليه، ولم يزده مرضه إلا تخففاً وشجاعة،.. وهو من القلة التي تستطيع أن تكشف حدود الحرية الفكرية في أمريكا، وما أصعب أن ترى حدود الحرية. خسر المسلمون والعرب مدافعاً فصيحاً عن قضاياهم، ومهتماً بارزاً بقضية فلسطين. لقد كان رجلاً واحداً ولكنه كان جهازاً إعلامياً ثقافياً مؤثراً، أكثر مما أثرت الدول العربية في التوعية بالمسألة الفلسطينية في الغرب، وكان مطَّلعاً ومتابعاً للأحداث، ومعلقاً فطناً، ومتحدثاً آسراً، يفوق أسلوب حديثه أسلوب كتابته. كتبه القديمة والحديثة دائماً معروضة في طبعات جديدة، لا ينتهي حولها الجدل، كان صيَّاداً وعارضاً للفكرة مجيداً، ومبدعاً في اعتراضه ومؤثراً، عمقه في أدب الإنجليزية لا يبارى، وأجاد الفرنسية، ثم عاد لبيروت وتمكن من العربية»[١].

• وأختم هذه الأقوال بقصيدة للشاعر محمود درويش عن إدوارد سعيد أسماها «طباق»، وهو يحاكي نظرية الطباق عند سعيد، جاء في مطلعها[٢]:

نيويورك/ نوفمبر/ الشارعُ الخامسُ/
الشمسُ صَحْنٌ من المعدن المتطاير/
قُلْتُ لنفسي الغريبة في الظل:
هل هذه بابلٌ أم سدوم؟
هناك، على باب هاويةٍ كهربائيَّةٍ
بعُلوِّ السماء، التقيتُ بإدوارد
قبل ثلاثين عاماً،
وكان الزمان أَقَلَّ جموحاً من الآن
قال كلانا:
إذا كان ماضيكَ تجربةً

(١) إدوارد سعيد لو كان مسلماً لترحمنا عليه، د. محمد حامد الأحمر، صحيفة العصر الإلكترونية، ٢٧/٩/٢٠٠٣م، انظر الرابط:
http://www.alasr.ws/index.cfm?method=home.con&conten ID=4571.

(٢) طباق، محمود درويش، ضمن كتاب: إدوارد سعيد الطائر المهاجر، ص٤٣٧.

فاجعلِ الغَدَ معنى ورؤيا!
لنذهبْ،
لنذهبْ إلى غدنا واثقين
بصدق الخيال، ومعجزة العشبِ/
لا أتذكَّر أنَّا ذهبنا إلى السينما
في المساء. ولكنْ سمعْتُ هنوداً
قدامى ينادونني:
لا تَثِقْ بالحصان، ولا بالحداثِة/
لا، لا ضحيَّةَ تسأل جلّادها:
هل أنا أنتَ؟ لو كان سيفي
أكبر من وردتي، هل ستسأل
إن كُنْتُ أفعل مثلَكَ؟

وسأتحدث في هذا الفصل عن كل شخصية في مبحث مستقل، وسأذكر أثرها في فكر سعيد، ومواطن الاتفاق والاختلاف إن وجدت.

إريك أورباخ (Erich Auerbach):

ولد «أورباخ» في برلين عام ١٨٩٢م وتوفي عام ١٩٥٧م في مدينة «والينجفورد» في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد مشاركته في الحرب العالمية الأولى. حصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٢١م، وفي عام ١٩٢٩م عُيِّن أحد أعضاء هيئة تدريس فقه اللغة في جامعة «ماربورغ»، ومع صعود الفاشية اضطر «أورباخ» إلى ترك منصبه عام ١٩٣٥م، ولجأ بعدها إلى إسطنبول التركية، وألف كتابه: تمثيل الواقع في الأدب الغربي.

وفي عام ١٩٤٧م، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ودرّس في جامعة ولاية «بنسلفانيا» ثم انتقل في عام ١٩٥٠م للتدريس في جامعة «ييل»، واستمر فيها حتى توفي عام ١٩٥٧م[(١)]. يصفه إدوارد في كتابه «الأنسنية والنقد الديموقراطي» بأنه إنسانوي أمريكي بالتبنِّي[(٢)].

تأثر سعيد بهذه الشخصية النقدية؛ نظراً للتشابه الكبير بينهما من حيث التخصص النقدي والنفي عن الديار. وتحدث كثيراً عن هذه الشخصية ومدى أهمية الفكرة التي ينادي بها، ويشير كثيراً إلى كتاب «المحاكاة» لـ«أورباخ»، وذكر بأنه: «محاولة لرؤية تطور الثقافة الغربية فيما كاد يكون آخر لحظة اكتملت فيها نزاهتها وتمتعت فيها بتماسكها الحضاري، ومن ثم فقد حدد لنفسه مهمة وضع كتاب علمي يقوم على تحليلات لنصوص معينة بأسلوب يعرض فيه مبادئ الإنتاج الأدبي الغربي بكل تنوعه وثرائه وخصبه، وكان الهدف رسم صورة مركّبة للثقافة الغربية، تضاهي في أهميتها جُهْدَ رسمها نفسه، ويقول «أورباخ»: إنه استطاع بذل هذا الجهد بفضل ما يسميه «المذهب الإنساني البورجوازي

---

(١) انظر:

BAKKER, E. J. 1999. Mimesis as Performance: Rereading Auerbach's First Chapter. Poetics Today, 20, 11-26.

BALDICK, C. 1996. «Realism». Oxford Concise Dictionary of Literary Terms, New York, Oxford University Press. pp.184.

(٢) انظر: الأنسنية والنقد الديموقراطي، ص١٠٩.

المتأخر»، وهكذا فإن العناصر الدقيقة المتفرقة التي يرصدها تتحول إلى رمز بالغ الدلالة لمسار تاريخ العالم»[١].

ويعتبر سعيد كتاب «محاكاة» لـ«أورباخ» «الأعظم والأكثر تأثيراً بين المنتجات الأدبية الأنسنية في نصف القرن الأخير. ويمكن قراءته بما هو مثال على الممارسة الإنسانوية في أرقى تجلياتها»[٢].

إن منهجية «أورباخ» في تأليف كتابه «المحاكاة» أطْلقتْ شرارة الإبداع عند إدوارد، الذي انتقى نصوصاً أدبية معينة، وقام بتحليلها، ورسم صورة واضحة للاستشراق الغربي، ورصد من خلال ذلك نظرة الأدباء والمثقفين الغربيين للشرق، وبلور الصورة التمثيلية للشرقي عند المفكر والسياسي الغربي.

إن إعجابه بـ«أورباخ» واستشهاده به في مواطن عديدة من كتبه لم يمنعه من توجيه النقد لبعض جوانب القصور عنده، فقد تحدث عن مقالة «أورباخ» المعنونة بـ: «فقه لغة الأدب العالمي» وقال عنها: «كُتِبَتْ بعد الحرب العالمية الثانية، عدَّد اللغات الأدبية والآداب الأخرى التي يبدو أنها ظهرتْ إلى الوجود ـ كما لو أنها جاءت من لا مكان؛ فهو لا يذكر شيئاً عن الاستعمار أو فكفكة الاستعمار ـ فإنه يعبِّر عن الكرب والخوف أكثر مما يعبر عن السرور؛ لبروز احتمال يبدو غير راغب فيه الاعتراف به، وهو أن رومانيا كانت تتعرض للتهديد ـ ويقصد الفضاء الجغرافي للغات والآداب الرومانسية»[٣]. وهذا ما جعل إدوارد يؤكد على ثراء التحليل في كتاب «المحاكاة» وموت الرسالة في الاستعمالات التي سُخِّر لها والتي وصفها بأنها «تافهة»[٤]، ويؤكد على هذا المعنى في كتابة «العالم والنص والناقد»: «فأورباخ كان واحداً من بين أواخر أكابر الممثلين لأولئك الناس الذين كانوا يعتقدون أن الثقافة الأوروبية ما هي إلا محور التاريخ البشري، والمحور الذي لا يرقى الشك إلى أهميته وترابطه المنطقي»[٥].

---

(١) الاستشراق، إدوارد سعيد، ص٣٩٩.

(٢) الأنسنية والنقد الديموقراطي، إدوارد سعيد، ص١٠٩.

(٣) الثقافة والإمبريالية، إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، ص١١٣.

(٤) المرجع السابق، ص١١٤.

(٥) العالم والنص والناقد، إدوارد سعيد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ (موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت)، ص١٩.

ورغم هذه الانتقادات فإن إدوارد استفاد من منهجية «أورباخ» في النقد لهذا يطلق حكمه على عمل «أورباخ» «فهو في أفضل الأحوال يعلمنا كيف نكون نقَّادين أكثر مما يعلمنا كيف نكون أعضاء ممتازين في مدرسة ما»[1]. هذه الجملة تبين حجم مفهوم عدم التبعية عند إدوارد سعيد، وفي مثل حالته تكون التبعية للغرب خيانة للأرض التي ولد بها وتربى عليها، ومن منظور إسلامي فإن التبعية للحق الذي أتت به الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ تبعية حقة، والنفور منها نفور عن الحق إلى اتّباع الباطل، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci):

ولد الفيلسوف والكاتب السياسي الإيطالي «أنطونيو غرامشي» في ٢٢ يونيو ١٨٩١م وتوفي في ٢٧ إبريل ١٩٣٧م، وهو أحد أبرز المؤسسين للحزب الشيوعي في إيطاليا، ومن أشهر المفكرين الماركسيين، سجن من قبل النظام الفاشي في إيطاليا منذ عام ١٩٢٦م إلى ١٩٣٧م ولم يخرج من السجن إلا في آخر حياته عندما ساءت حالته الصحية[2].

يرى إدوارد سعيد أنه: «منذ أيام «غرامشي» تَبَوَّأ بحثُ وضع المفكرين مركز الصدارة في تحليلات الدولة الحديثة اللاحقة للدولة الصناعية التي تختلف بالتأكيد اختلافاً جذرياً عن إنجلترا زمن السياسي والأديب الساخر «جوناثان سويفت» (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥م)، بيد أن هنالك أوجه تشابه بينهما مثيرة للاهتمام. ففي عام ١٩٧٩م كتب عالم الاجتماع الأمريكي «آلفين غولدنر» (١٩٢٠ ـ ١٩٨٠م) كتابه المعنون بـ«المفكرون المستقبليون وبروز الطبقة الجديدة» حيث يرى طبقة المفكرين الجديدة وهي تتحدى الطبقة الثرية القديمة على السلطة»[3].

يتحدث سعيد حول البعد الشخصي لكتابه «الاستشراق»، ويذكر جانباً من جوانب تأثره بـ«غرامشي»، وينقل قوله في مذكرات السجن: «إن نقطة الانطلاق

(١) المرجع السابق، ص٢٥.
(٢) موسوعة السياسة، (بيروت، ط٣، ١٩٩٠م) ٤/ ٣٣٢.
(٣) العالم والنص والناقد، ص٨٩.

عند المشروع في نقد تفصيلي تتمثل في الوعي بالذات، وفي معرفة النفس بصفتها نتيجة لعملية تاريخية جارية حتى تلك اللحظة، وهي العملية التي أودعت في النفس آثاراً لا يحصى عددها دون أن تصحبها قائمة جرد لها»[١]. ثم يعلق إدوارد: «والترجمة الإنجليزية الوحيدة المتاحة تتوقف ـ دون إيضاح ـ عند هذا الحد من تعليق «غرامشي»، أما النص الإيطالي الأصلي الذي كتبه «غرامشي» فينتهي بالعبارة التالية: «وإذن فلا مناص في البداية من إعداد قائمة الجرد المذكورة» ثم يربط بين كتابه لـ«الاستشراق» وبين كلام «غرامشي» السابق بقوله: «ومعظم رصيدي الشخصي الذي أستثمره في هذه الدراسة مستمد من وعيي بأنني شرقي باعتبار أنني نشأت طفلاً في مستعمرتين بريطانيتين.. ولقد كانت دراستي للاستشراق من عدة زوايا، محاولة لإعداد قائمة بالآثار التي خلفتها في نفسي، باعتباري ذاتاً شرقياً، تلك الثقافة التي كانت سيطرتها عاملاً قوياً في حياة جميع الشرقيين، وهذا السبب الذي دفعني إلى أن أجعل الشرق الإسلامي محور اهتمامي»[٢].

اعتمد سعيد على تقسيم «غرامشي» للمثقف وعلى نظرية الجرد من البداية في نقضه للسياسة الثقافية «التي تنتج العضوي في المؤسسات الأمريكية كما في غيرها، ونقد المثقف الاحترافي، الذي يرى المعرفة من وجهة نظر أصحاب السلطة، وندَّد بمعارف الاختصاص السلطوية التي تشل العقل وتحرِّض على الخضوع والامتثال»[٣].

ومن جوانب تأثره بـ«غرامشي» في تقسيمه للمثقفين، يقول في «العالم والنص الناقد»: «كان أول ماركسي حديث بين الماركسيين ـ وأكثرهم ذكاء على ما أتصور ـ الذين جعلوا المفكر يحتل مركز الصدارة في تحليلاتهم السياسية/ السوسيولوجية ـ أي: الاجتماعية ـ، فـ«غرامشي» يقول: إن المفكرين ينقسمون عادة إلى نوعين اثنين: المفكرون العضويون؛ أي: أولئك الناس الذين يبدو

(١) الاستشراق، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص٧٦.

(٣) أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد إشكالان مختلفان: فيصل درَّاج، مجلة البلاغة المقارنة ـ ألف ـ، الجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة، العدد: ٢٥، ٢٠٠٥م، ص١٢٤.

عليهم أنهم على ارتباط مع طبقة اجتماعية صاعدة، والذين يمهدون السبيل لانتصار تلك الطبقة على المجتمع المدني بتحضيره إيديولوجياً، والمفكرين التقليديين؛ أي: أولئك الناس الذين يبدو أنهم على غير ارتباط بالتغيير الاجتماعي، والذين يحتلون مواقع في المجتمع مخصصة للحفاظ على السيرورات التقليدية التي يصار من خلالها استيلاء الأفكار ـ كالمعلمين والكتاب والفنانين والقساوسة وأمثالهم ـ. إن فرضية «غرامشي» هي أن كل المفكرين هم بالفعل مفكرون عضويون إلى حد ما، إذ حتى حين يبدو عليهم بأنهم على غير ارتباط إطلاقاً بقضية سياسية فإنهم يلعبون دوراً اجتماعياً، كمعلمي المدارس مثلاً، إلى ذلك الحد الذي يجعلهم يضفون السمة الشرعية بشكل لا شعوري على الوضع السائد الذي يخدمونه. فـ«غرامشي» طيلة حياته قضى ردحاً من الزمن في دراسة «كروس» الذي وصفه في إحدى رسائله من السجن بأنه صنو واحد من البابوات العلمانيين؛ نظراً للسطوة الفلسفية التي مارسها على المجتمع الإيطالي الليبرالي، والتي أدت مباشرة لولادة الفاشية كما كان يعتقد «غرامشي»»[١].

ويلخص إدوارد قول «غرامشي» في كتابه «الاستشراق» بقوله: «وقد وضع «غرامشي» التمييز التحليلي المفيد بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي، فالأول يعني الهيئات الطوعية ـ أو قل العقلانية والبريئة من القسر على أقل تقدير ـ مثل المدارس والعائلات والنقابات، والثاني يعني مؤسسات الدولة (الجيش والبيروقراطية المركزية) والتي تتولى السيطرة المباشرة بين أبناء الشعب. وسوف تجد أن الثقافة حية عاملة داخل المتجمع المدني، حيث السيطرة بل من خلال الرضا وفق تعبير «غرامشي»»[٢].

وحاول الأستاذ: فيصل درَّاج ملاحظة زاويتي التوافق والاختلاف بين إدوارد و«غرامشي» فيقول: «في مقابل خطاب «غرامشي» المحدَّد ودقيق التحديد، بنى إدوارد خطاباً آخر يستلهم «غرامشي» ويتحرَّر منه، يستبدل بالمثقف العضوي المثقفَ الهاوي، وبالطبقة العاملة الجمهورَ، وبالثورة الاشتراكية الدفاعَ عن الحق.. ولعل في كلمات سعيد المتواترة عن الحق والحقيقة والعدل، التي تملأ

(١) العالم والنص والناقد، ص٨٩.

(٢) الاستشراق، ص٥٠.

كتابه صور المثقف خاصة ـ أو المثقف والسلطة ـ، ما يكشف عن خطاب أخلاقي لا يأتلف مع الخطاب السياسي، الذي هو مبتدأ خطاب «غرامشي» ونهايته»[(١)]. ويلمح الأستاذ فيصل التقليل من أثر «غرامشي» على إدوارد بقوله: «لم يكن سعيد في ممارسته الفكرية بحاجة إلى «أنطونيو غرامشي»، بل إن حذف الأخير من صفحات سعيد لا يغيِّر في دلالتها شيئاً، ذلك أن دور أفكار «غرامشي» هو البرهنة على صحة أفكار سعيد لا أكثر»[(٢)].

ولكني لا أتفق مع هذا الرأي الذي يلغي أثر «غرامشي» على إدوارد؛ لأن إدوارد تشبع بقراءة «غرامشي» وأثره على الفكر الماركسي، ولأنه يكثر من الاستشهاد به في كتبه، فلا يكاد يمر كتاب لإدوارد حول النقد والثقافة والمثقف إلا وتجده يستشهد بـ«غرامشي» وآرائه، ولا يخفى أن كثرة القراءة لأفكار شخصية ما، مع الإعجاب بها سيُبقي أثرها في فكر القارئ والأفكار التي يستنبطها، فتوالد الأفكار بين المثقفين دليل تأثر وتأثير فيما بينهم؛ لهذا نجد إدوارد نفسه لا يلغي تأثير «غرامشي» عليه، وإن خالفه في بعض الجوانب.

جوزيف كونراد (Joseph Conrad):

هو أديب إنجليزي بولندي الأصل ولد في ما يعرف بأوكرانيا البولندية عام ١٨٥٧م لوالد أديب مغمور انتقل مع والده إلى بولندا حيث توفي والده، ومنها انتقل إلى فرنسا عام ١٨٧٤م، فعمل بالملاحة هناك، ثم انتقل إلى إنجلترا واستمر في عمله بالبحر. ويعتبر أحد أبرز الروائيين الإنجليز، وأغلب رواياته لها علاقة بالبحر ويرويها بحار عجوز اسمه «مارلو»، من رواياته «قلب الظلام» «العميل السري» و«النصر» و«تحت عين غريبة» و«لورد جيم». توفي عام ١٩٢٤م بنوبة قلبية وهو في الولايات المتحدة وترك ١٣ رواية و٢٨ قصة قصيرة[(٣)].

---

(١) أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد إشكالان مختلفان: فيصل درَّاج، مجلة البلاغة المقارنة ـ ألف ـ، الجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة، العدد: ٢٥، ٢٠٠٥م، ص١٣١، ١٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٣.

(٣) انظر: إدوارد سعيد مقالات وحوارات، ص١٧٤، وانظر:

Orton Dauwen Zabel, «Conrad, Joseph», Encyclopedia Americana, 1986 ed., vol. 7, pp. 606.

Conrad, Joseph Martin Seymour-Smith, 1990 ed. The Secret agent. Penguin Classics. pp. 1.

يتحدث عنه إدوارد في مقدمته للطبعة العربية لكتاب «خارج المكان» بأن أول كتاب صدر له في العام ١٩٦٦م كان عن «جوزيف كونراد» «الذي غادر وطنه في السابعة عشرة من العمر. عاش «كونراد» في فرنسا، وعمل قرابة أربع سنوات في البحرية التجارية الفرنسية، وفي عام ١٨٧٨م جدَّد حياته فجأة، فعمل بحاراً في البحرية البريطانية إلى العام ١٨٩٥م عندما نشر روايته الأولى «جنون آلماير»[1]. ويستطرد إدوارد بذكر الشيء الجاذب له في شخص «كونراد» ألا وهو كتابته أعماله الأدبية باللغة الإنجليزية مع أنها كانت لغته الثالثة بعد البولندية والفرنسية ثم يقول: «لست أريد أن أضع نفسي في مصاف «كونراد»، وإنما أن أقارن فقط بيني وبينه من حيث استخدام اللغة الإنجليزية، غير أنَّ الفارق بين لغتي العربية الأم، والإنجليزية التي نشأت عليها واستخدمتُها في كل ما كتبته تقريباً، أكبرُ من ذلك الفارق بين البولندية والإنجليزية الذي وسم أدبَ «كونراد». وحتى لو اعترفنا بأنَّ بولندا بلد سلافي، فيما إنجلترا بلد أوروبي غربي، يبقى أنَّ العالم الذي نشأ فيه «كونراد» واللغة التي استخدمها في أعماله ظلا محصورين ضمن أوروبا بوصفهما وجهين لمنطقة واحدة. وأما حالتي أنا، فالفارق بين الإنجليزية والعربية يتخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين كلياً بل متعادلين: العالم الذي تنتمي إليه عائلتي وتاريخي وبيئتي وذاتي الأولية الحميمية ـ وهي كلها عربية ـ من جهة، وعالم تربيتي الكولونيالي وأذواقي وحساسياتي المكتسبة ومجمل حياتي المهنية معلماً وكاتباً من جهة أخرى»[2].

يظهر أن إدوارد منذ بداياته يتناغم كثيراً مع الأدباء الذين عاشوا في بيئة غير التي ولدوا فيها، وأقبلوا على تعلم لغة أخرى والكتابة بها، لذلك عكف على دراسة «كونراد» ولا شك أن إعجابه ـ أيضاً ـ بجودة كتاباته وأثر رواياته سبب رئيس في اختياره محلاً لدراسته.

ومن أهم جوانب التجاذب بين إدوارد و«كونراد» تطرق الأخير إلى قوة الاستعمار الشريرة «إذ يعتقد إنها تفوق أي قدرة لغوية في التعبير عنها، ومع ذلك فقد استطاع أن يوجز وصف الاستعمار بأقصى درجات التكثيف اللغوي في هذه

(١) خارج المكان، ص٧.

(٢) المرجع السابق، ص٧، ٨.

الرواية القصيرة «نوفيلا» «Novella»، وأن يقدم نقداً لاذعاً لهيمنة الاستعمار.. وينتقد «كونراد» الاستعمار بشدة كرسالة تبشيرية فيها الكثير من ضياع وتبديد للقوة البشرية الاستعمارية بدون طائل.. إن إدوارد يريد قراءة لهذه الرواية ـ قلب الظلام ـ لا تتوقف عند جماليات الصورة التي تتحدى الاستعمار فقط، بل تتجاوز ذلك إلى الدخول في أعماق واقع الاستعمار وممارسته البشعة»(١).

إن خطاب الظلم في «قلب الظلام» أثار في إدوارد خليطاً من مشاعر الشجن والدهشة والقلق والتوتر «وأكثر من ذلك أن هذه الشعلة هي التي تُعين على كشف الأجندة الخفية التي تختبئ وراء قناع الثقافة الإمبريالية.. إذ يعلق إدوارد على الراوي «مارلو» في «قلب الظلام» قائلاً: إن «مارلو» يقف حائراً أمام معضلة عدم قدرته على التعبير عن حقيقة الاستعمار في «الكونغو»، والتي لم يستطع زميله في الشركة «كورتز» أنْ يعبر بدوره عنها رغم أنه عمل لمدة أطول في الكونغو. لهذا نجد خطاب «مارلو» في مجمله لا يزيد عن أمور تقريبية لا تخلو أحياناً من التلفيق، وكأن كذبته المشهورة التي لفقها بقصد حَسَنٍ لخطيبة «كورتز» عند عودته من «الكونغو» إلى «براسل» ما هي إلا دليل على أن الاستعمار كذبة كبرى لا وجود لتعبير يمكن أن ينقل كنهها غير مثل هذه الكذبة التي هي أشهر كذبة في أدب الرواية»(٢).

ويرى سعيد أن «كونراد» تنبأ بالسيطرة الأمريكية على العالم، وروايته «نوسترومو» التي كتبها في عام ١٩٠٤م وتنبأ فيها بالاضطرابات وسوء الحكم التي يستحيل إيقافها في جمهوريات أمريكا الوسطى، ويستشهد إدوارد بمقطوعة قصيرة من هذه الرواية في «الثقافة والإمبريالية» ويهيئ لها بكلمات معدودة حتى يدخل القارئ جو الرواية؛ يقول: «يوجِّه «هولرويد» ـ أحد شخصيات رواية «نوسترومو» ـ وهو مموّل من «سان فرانسيسكو» يدعم البريطاني «تشارلز غولد» مالك منجم «سان تومي»، لربيبه تحذيراً بأننا لن نُجَرَّ كمستثمرين إلى مصاعب كبيرة، ومع ذلك فإنَّ بوسعنا أن نجلس ونراقب، ذات يوم، سنتدخل طبعاً. لا مفر لنا من

---

(١) إدوارد سعيد أسفار في عالم الثقافة، محمد شاهين، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٧م) ص٢٥، ٢٦.

(٢) إدوارد سعيد رواية للأجيال، ص١٦١.

ذلك. لكن ليس ثمة ما يدعو إلى العجلة، إن على الزمن ذاته أنْ يقف على خدمة أعظم بلد في كون الله الشاسع كلِّه، نحن سننطق الكلمة الحاسمة لكل شيء: الصناعة، والتجارة، والقانون، والصحافة، والفنون، والسياسة، والدين، من «كيب هورن» حتى «سوريث ساوند» دون انقطاع، بل وأبعد من ذلك ـ أيضاً ـ إذا ظهر أي شيء يستحق الامتلاك في القطب الشمالي. وبعدها ستكون لنا نعمةُ الاستيلاء برخاء وسلاسة على الجزر والقارات القصية من الكرة الأرضية. سنقوم بإدارة أعمال العالم سواء أراق ذلك للعالم أم لم يرق. ليس في وسع العالم أن يمنع ذلك، وليس في وسعنا نحن أيضاً، فيما أُخمِّن»[1].

ويرى أن «كونراد» «كان ـ في وقت واحد ـ مناهضاً للإمبريالية وإمبريالياً تقدمياً حين كان الأمر يتعلق بصياغة فساد السيطرة على ما وراء البحار ـ ذلك الفساد المؤكد لنفسه، المخادع لذاته ـ صياغةً بالغة الشجاعة ومتشائمة، ورجعياً بعمق حين تعلق الأمر بالتسليم بأن أفريقيا وأمريكا الجنوبية كان لهما في أي زمن تاريخٌ وثقافة مستقلان قام الإمبرياليون بخلخلتها بعنف غير أنهم في نهاية المطاف انهزموا أمامها.. بيد أن جميع هذه الأعمال التي تدين بالكثير للمفارقة اللاذعة المناهضة للإمبريالية لدى «كونراد» في «نوسترومو» تطرح منظومةً أنَّ منابع الفعل الهام والحياة الفعَّالة قائمةٌ في الغرب الذي يبدو ممثلوه أحراراً حريةً تامة في فرض أوهامهم وتصدقاتهم على عالم ثالث ميتِ العقل. وتبعاً لهذه النظرة فإنَّ الأقاليم الخارجية من العالم لا تملك حياة، أو تاريخاً، أو ثقافةً تستحق الذكر، وليس لها استقلال أو اكتمالية جديران بالتمثيل من دون الغرب. وحين يوجد ما يستحق الوصف فإنه ـ حذواً لكونراد ـ فاسدٌ منحلٌّ لا صلاح له إلى درجة يعجز عنها الكلام. لكن فيما كان «كونراد» قد كتب «نوسترومو» في مرحلة الحماسة الإمبريالية الأوروبية التي لم يكد ينازعها منازع»[2].

من خلال العرض السابق يتبين أن «كونراد» فتح نافذة جديد لإدوارد في دراسة الآداب المتعلقة بالاستعمار ونقدها، والرسائل المبطَّنة حول الدول المستعمِرة والمستعمَرة.

---

(١) الثقافة والإمبريالية، ص٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣، ٦٤.

جيامبا تيستا فيكو (Giambattista Vico):

ولد «فيكو» في عام ١٦٦٨م، وهو فيلسوف إيطالي، درس القانون الروماني واللغات القديمة والأدب والبلاغة والفلسفة والمنطق، وقضى حياته المهنية في جامعة «نابولي»، وهو مهتم بدراسة التأثر والتأثير ما بين التاريخ والثقافة، ألَّف عدة كتب من أهمها: «كتاب العلم الجديد»، توفي عام ١٧٤٤م[١].

في كتابه «مبادئ علم جديد»، الذي صدر عام ١٧٢٥م، وضع «فيكو» نظريته في فلسفة التاريخ، وشرح فيه مراحل التطور الاجتماعي في أشكالها التاريخية، وتوصل بموجبها إلى وضع قانون عام يحكم تطور المجتمعات. غير أن «فيكو» عارض المذهب العقلي الذي وضع دعائمه «ديكارت»[٢]، الذي اعتبر العقل هو مصدر المعرفة اليقينية، وحول الذات العاقلة إلى ذات تاريخية، وبذلك جعل العقل الإنساني صانع التاريخ وموضوعه، معتبراً التاريخ عملية عقلية منظمة وخلاقة والعقل موضوعا للمعرفة. كما عارض المذهب التجريبي، الذي اعتبر الخبرة هي المصدر الوحيد للمعرفة.

تأثر «فيكو» بآراء «أفلاطون» المثالية وقال بفكرة التطور الحتمي الذي يتم عن طريق القضاء والقدر ووحدة التطور البشري وتكامله وخضوع هذا التطور إلى قانون تعاقبي بين التقدم والنكوص ونشوء المجتمعات وتطورها ثم انحطاطها.

---

(١) انظر: الاستشراق، ص٢٧، وانظر: إدوارد سعيد مقالات وحوارات ص١٧٦.

(٢) رينيه ديكارت (Rene Descartes) (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) فيلسوف وفيزيائي ورياضي فرنسي، يُعتبر في رأي كثير من الباحثين أبا الفلسفة الحديثة ومؤسسها. اكتشف الهندسة التحليلية. وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصاً كتاب «تأملات في الفلسفة الأولى» (١٦٤١م) الذي ما زال يشكِّل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. كما اشتهر بكتابه: «مقالة في المنهج» (١٦٣٧م)، وفيه اطرح كل المعتقدات السابقة ليعاود البحث عن الحقيقة شاكاً في كل شيء إلا حقيقة واحدة وهي أنه يشك، ومن هنا كلمته المشهورة: «أنا أشك فإذن أنا أفكر. وأنا أفكر فإذن أنا موجود».

انظر: معجم أعلام المورد، ص١٩٦، وفلسفة ديكارت ومنهجه، مهدي فضل الله، (بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٩٦م). وانظر: الموسوعة العربية العالمية، (الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م) ١٠/ ٥٧٢.

فالتاريخ يسير عنده على شكل دائري، بمعنى أنه يعيد نفسه وأنه متشابه في كل العصور والمجتمعات.

ويرى فيكو بأن الحضارة تمر في تطورها بثلاث مراحل متعاقبة: الأولى مرحلة الدين، والثانية مرحلة العائلة، أما المرحلة الثالثة فهي دفن الموتى.

كما تمر الإنسانية بدورها بثلاث مراحل متشابهة ـ كما زعموا ـ وهي:

١ ـ المرحلة الإلـٰهية (الدينية) وهي مرحلة الإلـٰهية التي يسود فيها الخوف من المجهول ويتسلط فيها رجال الدين والكهنة.

٢ ـ المرحلة البطولية التي يسيطر فيها الأفراد وتتمثل بالأسر الرومانية الأبوية الكبيرة، التي تمثل بدايات تطور الفلسفة والمذاهب الأدبية والفنية.

٣ ـ المرحلة الإنسانية، وهي المرحلة العليا في التطور الحضاري إذ تسود فيها الحرية والأفكار الديمقراطية. وفي هذه المرحلة تطورت الحقوق المدنية والسياسية، التي قضت على الفوارق الطبقية فيها[١].

ينطلق إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» من مقولة «فيكو» لفهم كيف يكوِّن الناس مفهوم الشرق أو الغرب، فيقول: «وعلينا أن نأخذ مأخذ الجد الملاحظة الثاقبة التي أبداها «فيكو» والتي تقول: إن البشر هم الذين يصنعون تاريخهم وإن ما يستطيعون أن يعرفوه محدود بما صنعوه، وأن نطبق هذه الملاحظة على الحقائق الجغرافية، فندرك أن البشر هم الذين صنعوا ويصنعون «المحليات» و«المناطق» والقطاعات الجغرافية من أمثال «الشرق» أو «الغرب» فكل منهما كيان جغرافي ثقافي، ناهيك بكونه كياناً تاريخياً»[٢].

وعندما تحدث عن دور رحالة القرن الثامن عشر الميلادي في مقارنة الخبرة الأوروبية بالحضارات والأعراق الأخرى، استحضره بقوله: «مثلما كان «فيكو» يستطيع أن يفهم الحضارة الحديثة على ضوء البدايات الرائعة الأولى للحضارات

---

(١) انظر: فلسفة التاريخ والتطور الاجتماعي، إبراهيم الحيدري، صحيفة الوسط البحرينية، العدد: ٢٧٠٩، ٥/٢/٢٠١٠، انظر الرابط:

http://www.alwasatnews.com/2709/news/read/368869/1.html.

(٢) الاستشراق، ص٤٨.

الوحشية الشاعرية»[١].

وفي إحدى مقابلاته يتحدث عن عمق أثر «فيكو» عليه، يقول «إمري» ـ معد اللقاء ـ: هناك شيء في «البدايات» ثم ازداد بقوة ـ وهو شيء مستغرب فيك ـ ذلك هو عنصر «فيكو»، كيف سيطر «فيكو» عليك دون سائر الناس؟

فيجيب إدوارد:

«إن التأثير الهائل الذي تركه «العلم الجديد» فيّ وأنا طالب في الدراسات العليا ربما كان مرده إلى المنظر الذي يرسمه إنسان متوحش غير يهودي، المردة، الفترة بعد الطوفان مباشرة، ناس يجوبون وجه البسيطة. ثم يأخذون في تهذيب أنفسهم تدريجياً بدافع الخوف من ناحية وبحكم القدر من ناحية أخرى. هذا النوع من تكوين الذات بدا لي في قلب جميع الرؤى الأصلية القوية الممتعة ـ طبعاً تجدها عند ماركس[٢] وعند ابن خلدون[٣] ـ، الطريقة التي تشكل بها جماعة نفسها لتجعل منها جسماً وعقلاً ثم مجتمعاً.

ثانياً: كان «فيكو» يفعل دائماً بالالتفات حول الأفكار الدينية عن الخلق وما شابه ذلك، بخاصة وأنه ضد ديكارت والعقلانية الكاثوليكية، مما أكسب

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٤.

(٢) كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣م) عالم اقتصاد وفيلسوف اجتماعي ألماني، نشر مع صديقه «فريدريك أنجلز» البيان الشيوعي عام ١٨٤٨م، أبعد عن ألمانيا وفرنسا، ثم انتقل إلى لندن عام ١٨٤٩م، حيث انكبَّ على الدرس في المتحف البريطاني. أشهر آثاره: كتاب «رأس المال» في ثلاثة مجلدات نُشر أولها: عام ١٨٦٧م، وثانيها: عام ١٨٨٥م، وثالثها: عام ١٨٩٤م.

انظر: معجم أعلام المورد، ص٤٠٥، ٤٠٦. وانظر: الموسوعة العربية العالمية، ٢٢/ ٦٣، ٦٤.

(٣) عبد الرحمٰن بن محمد ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨م/ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦هـ) مؤرخ وفيلسوف عربي. يُعتبر أحد أعظم المفكرين العالميين في مختلف العصور. ولد ونشأ بتونس، ارتحل إلى مصر فتولى فيها قضاء المالكية، وضع لكتابه الضخم «العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، مقدمةً جعلت منه مؤسساً لفلسفة التاريخ ولعلم الاجتماع. وقد دعا علم الاجتماع في مقدمته هذه «علمَ العُمران».

انظر: معجم أعلام المورد، ص٢٥. وانظر: الموسوعة العربية العالمية، ١٠/ ١٣٥، ١٣٦.

عمله قوة فائقة»[١].

ويخصص إدوارد فصلاً مستقلاً في كتابه «العالم والناقد والنص» يشرح فيه نظرية التكرار عند «فيكو» وملخصها أن الرجال هم من يصنع التاريخ وفقاً لدورات تكرر نفسها بأنماط عقلية تحفظ الجنس البشري، فأي «تفحّص للوقائع الملموسة للتاريخ البشري، الأمر الذي ليس في متناول أي فيلسوف أو فيلولوجي ـ أي: عالم بفقه اللغة ـ، يكشف عن وجود مبدأ أو قوة نظام داخلي ضمن سلسلة من الأحداث التي لولاه لكانت أحداثاً فوضى. والعقل هو النظام العام للفرملة التي تكبح اللاعقلانية المتسارعة على الدوام في السلوك البشري. فمن قلب كل مثال عن حماقة الرجال تأتي تلك النتيجة التي تعمل ضد النية العاجلة للكائن البشري والتي تبدو إملاء من إملاءات العقل، الذي يتمثل هدفه الأسمى في حفظ الجنس البشري. ولكن كيف؟ بالتأكد من أن التاريخ البشري يثابر على تكرار نفسه وفق مسيرة الأحداث مسيرة محددة معينة. وهكذا فإن العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء تفضي إلى قيام الزواج، وتفضي مؤسسة الزواج إلى قيام المدن، ويفضي نضال العامة إلى قيام القوانين كما أن صراع الجماهير مع القوانين يفضي إلى قيام الطغيان، ويفضي الطغيان في خاتمة المطاف إلى الاستسلام للقوى الأجنبية. ومن صميم هذا الانحطاط الأخير تبدأ دورة جديدة انطلاقاً عن التفسخ المطلق الذي يتفسخه الإنسان في البراري»[٢].

وبعد سرد مطول لنظرية التكرار يشير سعيد إلى موقف ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣م) من التكرار واستغلال النظرية بطريقة مسيئة ثم يذكر في نهاية المبحث: «فالتكرار على أرجح الظن مقيد بالانتقال من إعادة تجميع الخبرة بشكل فوري إلى إعادة تشكيلها وترتيبها بشكل متكاثر الوساطة، الأمر الذي يفضي إلى تزايد التفاوت بين هذه النسخة وبين نسختها المكرورة، وذلك لأن الشيء المكرور لا يمكنه أن يتملص طويلاً من السخريات التي يحملها في صميمه. إن التكرار حتى في الوقت الذي يحدث فيه يثير التساؤل التالي: هل يعزز التكرار حقيقة ما أم

(١) إدوار سعيد مقالات وحوارات، ص١١٦، ١١٧

(٢) العالم والنص والناقد، ص١٢٦

سينزل بمرتبتها إلى تحت؟ غير أن هذا التساؤل يطرح إدراك شيئين، في المكان الذي كان فيه استرخاء لواحد منهما من قبل، مع العلم أن مثل هذه المعرفة شأنها شأن الإنجاب. يتعذر فعلاً عكسها إلى النقيض. وبعد ذلك تتفاقم المشكلات، ولكن هل تتفاقم بشكل طبيعي أم بشكل غير طبيعي، بشكل قرابة أو تقرب؟ وذاك هو السؤال»[١].

ونستطيع أن نلخص تأثر سعيد بـ«فيكو» في هذه النقاط الآتية:

أولاً: إمكانية التغيير في حياة البشر، فهم صانعو التاريخ وبإمكانهم إبداع مجتمع بديل لمجتمعهم الحالي، فاحتمالات التغيير إلى الأفضل قائمة، تحتاج لمن يتعامل معها بفكر وتجديد، وجد واجتهاد.

ثانياً: من أبرز تأثيرات «فيكو» على سعيد اهتمامهما المشترك بالتاريخ، وتحليل الأحداث المؤثرة بلغة أدبية بليغة، واستخدام أدوات التحليل النقدي لتلك الأحداث.

ثالثاً: «فيكو» حاول تجاوز أوروبا والغرب ليستفيد من تجارب الأمم والشعوب الأخرى كالمصريين والعراقيين القدامى، ويتجاوز حديثه عن الإنسان العنصرية والقومية الضيقة.

ميشيل فوكو (Michel Foucault):

ولد الفيلسوف والمؤرخ وعالم الاجتماع الفرنسي «ميشيل فوكو» في ١٥ أكتوبر ١٩٢٦م، نشأ في أسرة محافظة وكان أبوه طبيباً معروفاً، واصل تعليمه حتى حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة فرنسية، ثم انتقل للتدريس في جامعة تونس عام ١٩٦٦م، ثم عين بروفسوراً في تاريخ نظام الفكر بفرنسا، ثم عمل صحفياً لمدة يسيرة ليقوم بتغطية التظاهرات ضد الشاه في إيران عام ١٩٧٨م، يصف النقاد «فوكو» بأنه من كتاب «ما بعد الحداثة» أو «ما بعد البنيوية».

ألف «فوكو» عدة كتب من أهمها: «تاريخ الجنون» و«الكلمات والأشياء»

(١) المرجع السابق، ص١٤١، ١٤٢

و«علم آثار المعرفة» و«التأديب والعقاب»، توفي بمرض الإيدز في ٢٥ يونيو ١٩٨٥م[١].

إدوارد سعيد مدين للخطاب عند «فوكو»، فهو استند على رؤيته للخطاب فكان عموداً فقرياً بنى عليه كتابه «الاستشراق». ويعرِّف «فوكو» الخطاب بأنه: «النصوص والأقوال كما تعطى في مجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها المنطقية أو تنظيمها البنائي»[٢]. وفكرة «فوكو» عن الخطاب «هي مساحة من المعرفة الاجتماعية محددة على نحو شديد من دون أن يشير إلى «الكلام» في معناه التقليدي. فبالنسبة له العالم ليس موجوداً ببساطة للتحدث عنه، بل بالأحرى أنه خطاب يمكن للعالم أن يوجد بوساطته. وفي مثل هذا يتوصل المتكلمون والمستمعون، الكتاب والقراء، إلى فهم لأنفسهم وعلاقات بعضهم مع بعض وموقعهم في العالم. إنه تلك العقدة من العلامات والممارسات التي تنشئ الوجود الاجتماعي والنتاج الاجتماعي، والتي تقرر كيف تتحدد شروط التجارب والهويات»[٣].

ومن أبرز ما يميز تحليلات «فوكو» للخطاب المنهج الذي اشتق لنفسه وهو ما وصفه بـ «إركيولوجيا المعرفة» بمعنى أنه دراسة آثارية، تتسم بأنها ليست أفقية ولا تاريخية إذ تقتطف نصوصاً من كتب مختلفة الفترات، دونما اهتمام بسير مؤلفيها لتعرف «الأنماط الخطابية» التي تشترك فيها كل النصوص العائدة لعصر أو حقبة من الزمن (واحدة). ولسنا بحاجة هنا إلى التذكير بأهمية السياق في تحليل الخطاب كما أكدت هذه الدراسة أكثر من مرة، ولكننا نشير إلى أن قياس الخطاب الذي هو أقرب ما يكون إلى الكائن الحي النشط (قابلية التفاعل أثناء التلقي....) بالآثار المادية (كالصخور) أمر فيه شيء بل كثير من عدم الدقة والاتساق في الوصف والقياس...»[٤].

---

(١) ميشيل فوكو مسيرة فلسفية، أوبير دريفوس، وبول رابينوف، ترجمة: جورج أبي صالح (لبنان، مركز الإنماء القومي).

(٢) حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ترجمة: سالم يفوت، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧م) ص٢٥.

(٣) إدوارد سعيد ـ مفارقة الهوية، ص٢٤، ٢٥.

(٤) السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، محمد الأمين =

ويرى «فوكو» أن الثابت في العلاقة بين الخطاب والتاريخ «هو هذه الطريقة التي تسمح لنا بمعالجة التاريخ كمجموعة من المنطوقات الفعلية والمتمفصلة، أو دراسة اللغة كموضوع للوصف، وكجملة من العلاقات، مما يجعل المنطوقات تترابط مع مختلف أنماط الخطاب. وهذا التمفصل بين التاريخ والخطاب يظهر أكثر إذا أردنا دراسة مؤسسة من المؤسسات كالمستشفى مثلا، حيث يتطلب الأمر النظر في أرشيف هذه المؤسسة في حالة تكوّنه، أو كخطاب في حال التشكّل، وجعله في نفس حركة المستشفى. وهذا يسمح بربط الخطاب بحركة التاريخ في شكل تاريخ المؤسسة»[(١)].

وعالج إدوارد موضوعه الاستشراق بصفته «أسلوباً غربياً للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه»، ويعترف إدوارد بأنه انتفع بالفكرة التي طرحها «ميشيل فوكو» عن «الخطاب» في كتابيه «علم آثار المعرفة» و«التأديب والعقاب»[(٢)].

ويُفصِّل سعيد في الحجة التي يطرحها حول معنى الاستشراق: «إننا ما لم نفحص الاستشراق باعتباره لوناً من ألوان الخطاب فلن نتمكن مطلقاً من تفهم المبحث البالغ الانتظام الذي مكَّنَ الثقافة الأوروبية من تدبير أمور الشرق ـ بل وابتدعته ـ في مجالات السياسة وعلم الاجتماع، وفي المجالات العسكرية، والأيديولوجية، والعلمية، والخيالية، في الفترة التالية لعصر التنوير»[(٣)].

طرح «فوكو» العلاقة بين السلطة والمعرفة، وهي من المفاهيم المركزية أو الأساسية الخاصة بتحليلاته، والمختلفة عن الدراسات التي تناقش علاقة العلم بالسياسة أو علاقة العقل بالهيمنة. يتحدد مفهوم المعرفة ـ السلطة بالجمع والربط بينهما لا بالفصل والتميز كما هو عند الفلاسفة، وخاصة المدرسة الماركسية أو

= ولد سيد أحمد، رسالة ماجستير (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٨م) ص١٢٠.

(١) ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، د. الزواوي بغورة، (بيروت، دار الطليعة، ط٢، ٢٠٠٧م) ص٣٤.

(٢) الاستشراق، ص٤٥، ٤٦.

(٣) المرجع السابق، ص٤٦.

في مدرسة فرانكفورت»[١]، ويرى أن لمجموعة من الناس أن تمتلك أزمّة السلطة لصناعة وجهة نظر عالمية أو إعادة صياغة العالم إذا تسلّحوا بالمعرفة[٢].

وهذا ما يؤكد عليه سعيد ـ حول تأثير الإمبريالية على الإنتاج الأدبي والاجتماعي والتاريخي ـ بقوله: «لا يعني أن ذلك يحطُّ من قدر الثقافة أو يهينها، والعكس هو الصحيح، وكل ما أرمي إليه هو القول بأننا سوف يزداد تفهمنا لظاهرة استمرار ودوام مذاهب الهيمنة التي تتشبع بها النفوس، مثل الثقافة، عندما ندرك أن القيود الداخلية التي تفرضها على الكُتّاب والمفكرين كانت مثمرة ولم تكن في ذاتها تعوقهم عن الإنتاج، وهذه الفكرة التي حاول إيضاحها كل من «غرامشي» ـ المفكر الإيطالي ـ (١٨٩١ ـ ١٩٣٧م) و«فوكو» ـ الفيلسوف الفرنسي ـ»[٣].

ويصرح إدوارد بأنه يختلف مع «فوكو»، وإن كان يدين لعمله بِدَيْنٍ كبير، ثم يشرح وجه الاختلاف بينهما: «إنني أعتقد اعتقاداً راسخاً أن كل مؤلِّف فرد يُكْسِبُ عمله طابعه الذي يحدد طابع النص، ولولا ذلك لأصبحت لدينا مجموعة جماعية مجهولة المؤلف من النصوص التي تمثل الاستشراق.. يعتقد «فوكو» أنه ليست هناك قيمة تذكر ـ بصفة عامة ـ للنص المفرد، أو المؤلف المفرد، لكنني وجدت أن الواقع العملي، في حالة الاستشراق ـ وربما ليس في حالات أخرى ـ يقول بغير ذلك، ومن ثَمَّ فإن تحليلاتي قراءات نصيَّة دقيقة ترمي إلى إماطة اللثام عن الجدلية الدائرة بين النص أو المؤلف الفرد من ناحية، وبين التشكيل الجماعي المركَّب الذي يشارك فيه عمل المؤلف»[٤].

وبهذا يظهر أن إدوارد سعيد تأثر بنظرية الخطاب، وعلاقة السلطة بالمعرفة عن فوكو، وانتقده في إماتته للنص وعدم اعتبار المؤلف أو الظروف المحيطة به أثناء تحليله.

---

(١) مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، د. الزواوي بغورة، (مصر، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م) ص٣٧٣.
(٢) صدام ما بعد الحداثة، ص٩٤.
(٣) الاستشراق، ص٦١.
(٤) المرجع السابق، ص٧٣، ٧٤

نظام تمثيل لم تتمّ بعد دراسة تاريخه ونطاقه على نحو منهجيّ ومعمّق. وهكذا شرعت في القيام بذلك، وبدأت العمل في شتاء ١٩٧٤م»[١].

ولا أبالغ عندما أقول: إن كتاب «الاستشراق»، والذي نشر باللغة الإنجليزية في عام ١٩٧٨م، أحد أهم الكتب في قراءة الفكر الغربي تجاه الشرق، ومن «أهم كتب القرن العشرين بالنسبة للعرب، فقد كشف فيه مؤلفه المفكر والناقد الفلسطيني المعروف إدوارد سعيد حقائق وأشياء جوهرية عن علاقة الغرب بالشرق»[٢]، ولم يتوقع سعيد انتشار الكتاب إلى هذا الحد[٣]، فقد ترجم إلى أكثر من عشرين لغة[٤]، وحظي «بتلقٍ واسعٍ داخل آفاق ثقافية متنوعة، ويعبر هذا الاحتفاء عن إدراك ما يمثله هذا الكتاب من تطور في الوعي بآليات الهيمنة وكيفية مقاومتها، ويقدم إدوارد سعيد في كتابه نقداً لخطاب الغرب عن الشرق، وهو الذي يطلق عليه اسم «الاستشراق»، يقوم على تأكيد سمتين أساسيتين: أولاهما: أن الشرق الموجود ضمن هذا الخطاب ليس تمثيلاً يقدمه الفكر الغربي عن الشرق، بعيداً كل البعد عن الواقع الفعلي. وثانيهما: أن هذا الخطاب رغم أصوله التاريخية قد أُنتج في ظل السيطرة الاستعمارية للغرب على الشرق ويهدف في الوقت نفسه إلى ترسيخها وإعادة إنتاجها»[٥].

وغرضه من هذا الكتاب «توضيح الاستشراق وتحليله وتأمله باعتباره صورة من صور ممارسة القوة الثقافية»[٦]، والأساس الفكري للكتاب كما صرح به في مقدمة كتابه تغطية الإسلام هو «الارتباط بين المعرفة وبين السلطة أو القوة»[٧].

ويقوم بدراسة الاستشراق باعتباره صورة للتبادل؛ أي: التفاعل الديناميـ

(١) انظر: تعقيبات على الاستشراق، إدوارد سعيد، ص١٤١ ـ ١٤٥.

(٢) إضاءات على كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، باقر بري، ط١، (بيروت، دار الهادي للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م) ص٥.

(٣) انظر: تعقيبات على الاستشراق، ص١٠١.

(٤) انظر: إدوارد سعيد طائر القدس المهاجر، مجموعة مقالات، إعداد وتوثيق: مازن يوسف صباغ، ط١، (دمشق، دار الشرق للطباعة والنشر، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م) ص٢٥٧ و٤٧٦.

(٥) مقال: سعيد وماركس والاستشراق، أنور مغيث، مجلة البلاغة المقارنة ـ ألف ـ، الجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة، العدد: ٢٥، ٢٠٠٥م، ص١٠٥

(٦) الاستشراق، ص٩٧.

(٧) تغطية الإسلام، ص٢٦.

بين المؤلفين الأفراد والمشاغل السياسية الكبرى التي شكلتها الإمبراطوريات العظمى الثلاث البريطانية والفرنسية والأمريكية، وهي التي نبتت في تربتها الفكرية والإبداعية كتاباتهم، ويقول: «وأما أشد ما يهمني باعتباري باحثاً فلا يكمن في الصدق السياسي الكُليّ بل في التفاصيل، مثلما نجد أن ما يهمنا في كتابات كاتب مثل «إدوارد لين»[١] أو «جوستاف فلوبير»[٢] أو «إرنست رينان»[٣] لا يكمن فيما أراه هو من الصدق المطلق لمقولة تفوق الغربيين على الشرقيين، بل في الشواهد التفصيلية التي يُطوّعها ويتلاعب بها بحذق شديد في المجال الفسيح الذي أتاحه له إيمانه بصدق المقولة المذكورة، ويكفي لتفهم ما أقوله هنا أن نذكر أن كتاب «أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم» الذي وضعه «إدوارد لين» أصبح عملاً كلاسيكياً باهراً، بما يسجله من دقة الملاحظات التاريخية والأنثروبولوجية ـ علم الإنسان، بسبب أسلوبه، وبسبب تفاصيله الرائعة التي تنم عن ذكاء خارق، لا بسبب ما يتجلى فيه من الإحساس بالتفوق العنصري»[٤].

(١) إدوارد وليم لين (Edward William Lane) (١٨٠١ ـ ١٨٧٦م) مستعرب إنجليزي، ارتحل إلى مصر عام ١٨٢٥م وعايش أبناءها، من مصنفاته: «وصف لعادات المصريين المحدثين وتقاليدهم»، وترجمة لكتاب: «ألف ليلة وليلة»، ومعجم عربي إنجليزي دعاه «مدُّ اللغة» ولكنه لم يوفَّق لإتمامه.

انظر: معجم أعلام المورد، ص٤٠٠، وانظر: تاريخ حركة الاستشراق ـ الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم، (بنغازي، دار المدار الإسلامي، ط٢، ٢٠٠١م) ص١٦٩، ١٧٠.

(٢) جوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) (١٨٢١ ـ ١٨٨٠م) روائي فرنسي، يُعتبر في رأي النقاد رائدَ الواقعية في الأدب الحديث. ينمُّ أسلوبه عن كدح موصول في سبيل الكمال الفنيّ. أشهر آثاره: «مدام بوفاري»، وقد صوَّر فيها الحياة الفرنسية البرجوازية تصويراً لم يَرُقْ لكثير من أهل العصر فحوكم بتهمة الفحش والإباحية، ومن أعماله «سالامبو» وقد جعل مسرحَ أحداثها قرطاجة القديمة. انظر: معجم أعلام المورد، ص٣٢٧.

(٣) أرنست رينان (Ernest Renan) (١٨٣٣ ـ ١٨٩٢م) مؤرخ وفيلسوف فرنسي، عانى أزمة إيمان أدّت به إلى الارتداد عن عقيدته الكاثوليكية. تميّزت بحوثه بالنزعة العقلانية وبالإيمان بالعلم. زار لبنان في مهمة آثارية عام ١٨٦٠م، ثم عرَّج على فلسطين عام ١٨٦١م بحثاً عن مادة أصلية لكتابه الأشهر «حياة يسوع» عام ١٨٦٣م، واشتهر باحتقاره للإسلام. انظر: معجم أعلام المورد، ٢١٧.

(٤) الاستشراق، ص٦١، ٦٢.

ويحدد إدوارد سعيد الأسئلة التي يجيب عنها كتابه «الاستشراق»، وهي كما يلي:

١ ـ ما أنواع الطاقات الأخرى، الفكرية، والجمالية، والعلمية، والثقافية التي شاركت في تشكيل التقاليد الإمبريالية، مثل تقاليد الاستشراق؟

٢ ـ كيف شارك فقه اللغة، ووضع المعاجم، والتاريخ، والبيولوجيا ـ علم الأحياء ـ، والنظرية السياسية والاقتصادية، وكتابة الروايات والشعر الغنائي في خدمة رؤية الاستشراق للعالم وهي الرؤية التي تعتبر إمبريالية بصفة عامة؟

٣ ـ ما التغيرات والتحويرات والتشذيبات بل والثورات التي حدثت داخل الاستشراق؟

٤ ـ وما معنى الأصالة والاستمرار والنزعة الفردية في هذا السياق؟

٥ ـ وكيف ينقل الاستشراق نفسه أو يتوالد من حقبة إلى حقبة؟

٦ ـ وفي النهاية، كيف نعالج ظاهرة الاستشراق، وهي ظاهرة ثقافية وتاريخية، باعتبارها ضرباً من الجهد البشري المتعمد ـ لا من التسلسل المنطقي وغير المشروط للأحداث ـ وبكل تعقيدها التاريخي وتفاصيلها وأهميتها دون أن نغفل عيوننا، في الوقت نفسه عن التحالف القائم بين العمل الثقافي، والاتجاهات السياسية، والدولة، وحقائق السيطرة المحددة؟[١].

وعَمِد المؤلف إلى اختيار أحداث وشخصيات ونصوص تخدم فكرته وتوضحها، ولم ينتهج طريقة السرد التاريخي الموسوعي للاستشراق، لثلاثة أسباب، هي:

١ ـ لأنه لو كان المبدأ الذي اهتدى به هو الفكرة الأوروبية عن الشرق، فلن يكون للمادة التي التزم بتناولها حدود تقريباً.

٢ ـ ولأن النموذج السردي نفسه لم يكن مناسباً لاهتماماته الوصفية والسياسية.

---

(١) انظر: الاستشراق، ص٦١، ٦٢.

٣ ـ ولأنه يوجد بعض الكتب الكافية في هذا الباب[١].

ويحدِّد الفئات التي يستهدفها الكتاب بثلاث فئات، هي:

١ ـ «الاستشراق» يقدم لدارسي الأدب والنقد نموذجاً رائعاً للعلاقات المتداخلة ما بين المجتمع والتاريخ والنصوص، كما أن الدور الثقافي الذي قام به الشرق في بلدان الغرب يربط الاستشراق بالأيديولوجيا والسياسة ومنطق السلطة، وهي أمور تهم المجتمع الأدبي.

٢ ـ دارسو الشرق المعاصرون، من الباحثين الجامعيين إلى راسمي السياسات، بهذه الدراسة، وله غايتان من استهداف هذه الفئة:

الأولى: هي تقديم صورة أنسابهم الفكرية بطريقة غير مسبوقة.

والثانية: هي نقد الافتراضات التي يعتمد عليها معظم عملهم، وهي التي كثيراً ما لا يتساءل عن صحتها أحد، على أمل أن يؤدي هذا إلى إثارة المناقشة حولها.

٣ ـ القارئ العام، فإن هذه الدراسة تتناول أموراً دائماً ما تفرض الانتباه لها، وهي تتصل جميعاً لا بتصورات الغرب عن الآخر ومعاملاته معه فقط، بل ـ أيضاً ـ بالدور ذي الأهمية الفريدة الذي تقوم به الثقافة الغربية فيما أسماه «فيكو» (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤م) «عالم الأمم»[٢].

٤ ـ إلى القراء فيما يسمى بالعالم الثالث، وتقدم هذه الدراسة نفسها لا باعتبارها خطوة في سبيل تفهم السياسة الغربية والموقع الذي يشغله العالم غير الغربي في هذه السياسة، بقدر ما هي خطوة في سبيل تفهم قوة الخطاب الثقافي الغربي، وهي القوة التي كثيراً ما يتصور البعض خطأ أنها للزخرفة فحسب أو أنها تنتمي لما يسمى البنية الفوقية[٣].

ومن الصعوبات التي واجهته ضخامة المادة المتاحة، ومشكلة تسهيلها ومعالجتها، ولهذا يحدِّد نقطة بدايته بقوله: «ومن ثم كانت نقطة البداية عندي تتمثل في الخبرة البريطانية والفرنسية والأمريكية للشرق، باعتبارها وحدة

(١) المرجع السابق، ص٦٣ ـ ٦٥.

(٢) عالم الأمم: يشير إلى كتاب فيكو «العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم».

(٣) انظر: الاستشراق، ص٧٥.

متماسكة، إلى جانب الخلفية التاريخية والفكرية التي أتاحت تكوين هذه الخبرة، وكذلك نوع وطابع هذه الخبرة»[١].

وقد حصر مناقشته للاستشراق على الخبرة الأنجلوفرنسية والأمريكية بالعرب والإسلام، ويرى أن جانباً «كبيراً من تاريخ الاستشراق يحمل في داخله طابع الموقف الأوروبي المشْكِل إزاء الإسلام، وهذا الجانب البالغ الحساسية من الاستشراق هو الذي يدور حوله اهتمامي في هذه الدراسة»[٢]. ثم يبين سبب اقتصاره على الخبرة الأنجلوفرنسية والأمريكية بالعرب والإسلام لأنهما «الموضوعان اللذان ظلا يمثلان الشرق معاً على مدى ما يقرب من ألف عام.. فلقد كان عليَّ ـ والكلام له ـ في المقام الأول أن أحصر تركيزي حصراً صارماً في المادة البريطانية ـ الفرنسية ومن بعدها الأمريكية، بعد أن بدت لي حتمية صدق القول بأن بريطانيا وفرنسا كانتا الدولتين الرائدتين في الشرق والدراسات الشرقية، وإلى جانب ذلك نجد أن هذه المواقع الرائدة قد تحققت لهما بفضل أعظم شبكتين استعماريتين في تاريخ ما قبل القرن العشرين، وأما الموقع الأمريكي في الشرق منذ الحرب العالمية الثانية فقد نشأ ـ وأعتقد أنه اتسم بارتباك مؤكد ـ في المناطق التي اكتشفتها الدولتان الأوروبيتان اللتان سبقتا إليها. أضف إلى هذا ـ أيضاً ـ أن جودة الكتابات البريطانية والفرنسية والأمريكية عن الشرق، واتساقها وضخامة حجمها يجعلها في اعتقادي تتفوق على العمل الذي أنجزته ألمانيا وإيطاليا وروسيا وغيرها، رغم أنه عمل بالغ الأهمية، وإن كنت أظن ـ أيضاً ـ أنه من الصحيح القول بأن الخطوات الكبرى في الدراسات الشرقية قد اتُّخِذت أول ما اتُّخِذَتْ إما في بريطانيا أو في فرنسا، ثم زاد عليها وطورها الألمان»[٣].

وقد قَسَّم هذا الكتاب[٤] إلى ثلاثة فصول طويلة واثنتي عشرة وحدة قصيرة، بهدف تسهيل العرض.

---

(١) المرجع السابق، ص٦٣ ـ ٦٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٣.
(٣) المرجع السابق، ص٦٣ ـ ٦٥.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٧٥، ٧٦.

فالفصل الأول «نطاق الاستشراق»: يرسم دائرة كبيرة حول جميع أبعاد الموضوع، من حيث الزمن التاريخي والخبرات التاريخية، ومن حيث المحاور الفلسفية والسياسية.

والفصل الثاني «أبنية الاستشراق وإعادة بنائها»: يحاول متابعة تطور الاستشراق الحديث عن طريق الوصف الذي يتبع التسلسل الزمني بصفة عامة، وكذلك بوصف عدد من الوسائل التي يشترك في استعمالها كبار الشعراء والفنانين والباحثين.

والفصل الثالث «الاستشراق اليوم»: يبدأ حيث انتهى سابقه، في نحو عام ١٨٧٠م، وكانت فترة التوسع الاستعماري الكبير في الشرق، وهي التي بلغت ذروتها في الحرب العالمية الثانية، والقسم الأخير من الفصل الثالث يحدد ملامح التحول من الهيمنة البريطانية والفرنسية إلى الهيمنة الأمريكية، وفيه أحاول أخيراً رسم صورة الواقع الفكري والاجتماعي الحالي للاستشراق في الولايات المتحدة الأمريكية.

وتتلخص أطروحة إدوارد الرئيسة في الكتاب بأن معظم ما كتبه الغرب عن الشرق لا يعدو كونه في غالبيته صورة وهمية ابتدعها الكتاب الغربيون، وهي بهذا تعكس الشرق مصادفة أو عرَضاً لا أكثر، وتتكون هذه الصورة من مجموعة من التصنيفات والتنميطات التي تظهر صورة الشرق من زاوية فهم غربية، وهي صورة افترضت أن الشرق مختزل في كونه شيئاً غير أوروبي، وهي إلى ذلك صورة جامدة، ليس الشرق شاذاً فيها وحسب، وإنما هو غير متغير»[(١)].

ويؤكد بأن ظاهرة الاستشراق التي يدرسها ليس موضوعها مدى صدق الاستشراق في تصوير الشرق الحقيقي، ولكن موضوعها الرئيس هو الاتساق الداخلي للاستشراق والأفكار التي أتى بها عن الشرق، بغض النظر عن أي صدق أو كذب في تصوير الشرق الحقيقي[(٢)].

ويقول صبحي حداد: «كان الاستشراق نقلة إدوارد سعيد الحاسمة نحو تحليل العلاقة بين القوة والمعرفة، وأداء الخطاب الاستشراقي العام لوظيفة تعبوية

---

(١) انظر: إدوارد سعيد رواية للأجيال، ص٧٤.

(٢) انظر: الاستشراق، ص٤٨، ٤٩.

وسياسية وتخييلية خدمت السياسات الاستعمارية وشكَّلتْ جزءاً لا يتجزأ من مناخات صعود الإمبريالية، وإذا كانت منهجية سعيد في تحليل النصوص لا تغفل البصمات الخاصة التي تخلِّفها مقولة القصد الفردية ـ التي ناقشها في كتاب بدايات: القصد والمنهج ـ فإنها الآن ذات منهجية صارمة في متابعة مدى سطوة الخطاب الاستشراقي، وقدراته على اختزال تلك القصدية، ولهذا فإن الكتَّاب الأفراد الذين يناقش سعيد أعمالهم في الكتاب إنما ينتجون ذلك النمط الساكن في الخطاب العام الذي ينتهي بالكاتب الفرد والقارئ إلى مصيدة المعرفة الجمعية المضلِّلة، سواء بسواء.. الحجة المركزية في الاستشراق هي أن خطاب الاستشراقيين وعلى الرغم من النقلات الهامة التي شهدتها إستراتيجياته على مدى القرنين المنصرمين، ظلَّ في الجوهر عاجزاً عن التطور بسبب تمسكه بخرافة كبرى حول الشرق: أن الثقافة الشرقية هي في حدِّ ذاتها ثقافة التطور الموقوف بصمة دائمة»[(١)].

ويؤكد إدوارد بعد خمس عشرة سنة من تأليفه الاستشراق بأنه: «دراسة مرتكزة على إعادة التفكير في الهوَّة بين الشرق والغرب، تلك التي ساد الاعتقاد طيلة قرون بأنها غير قابلة للجَسْر، وهدفي ـ كما قلت من قبل ـ لم يكن تبديد الفارق ذاته ـ إذ مَن بوسعه إنكار الدور التكويني للفوارق القومية والثقافية في العلاقات بين البشر؟ ـ بل الفكرة القائلة بأن الفارق ينطوي على العداء، وعلى مجموعة مجمّدة مجسّدة مادياً لماهيات متناحرة، فضلاً عن معرفة خصامية بأسرها تُبنى من هذه الأشياء، وما دعوت إليه في الاستشراق كان سبيلاً جديداً في تصوّر الانفصالات والنزاعات التي حرَّضت على أجيال من العداء والحرب والسيطرة الإمبريالية، والحق أن واحداً من أبرز التطورات في الدراسات ما بعد الكولونيالية كان إعادة قراءة الأعمال الثقافية المنهاجية، لا للحطّ من منزلتها أو تلطيخها بالقاذورات بل لإعادة استقصاء بعض افتراضاتها، والذهاب أبعد من الأسر الخانق لها في طبعة ما من جدل ثنائية العبد ـ السيد»[(٢)].

ثم يقول: «وإذ أنظر إلى كتاب «الاستشراق» من مبعدة خمس عشرة سنة

---

(١) تعقيبات على الاستشراق، ص٢٦، ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٣١.

والإمبريالية، وثقافة ما بعد الاستعمار»(١).

ويرى د. جيمس بشاي أن «الجديد في الاستشراق عند إدوارد سعيد كان في متابعة الدراسات الاستشراقية في القرنين الماضيين، التي كانت تقوم على التشابه بين الأشياء والأجناس وترتيبها في مستويات نشوئه وارتقائه»(٢).

ويلخص كتاب «الاستشراق» مشروع إدوارد سعيد الفكري الأساسي، الذي يعرِّفه بأنه طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنية على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوروبية الغربية، حيث لم يكن الشرق لصيقاً بأوروبا فحسب، بل هو موضع أعظم مستعمرات أوروبا وأغناها وأقدمها، ومصدر حضارتها ولغاتها ومنافسها الثقافي(٣).

ثانياً: كتاب «الثقافة والإمبريالية» «Culture and Imperialism»:

يعدُّ كتاب «الثقافة والإمبريالية» استمراراً لمشروع إدوارد سعيد في مناقشة العلاقة بين المعرفة والسلطة، وتمثيل الغرب للشرق والشرقي، وفي هذا الكتاب تجلَّى المنهج النقدي لسعيد بصورة واضحة ومنتظمة.

يقول عن آلية تأليفه هذا الكتاب: أنه «بعد حوالي خمس سنوات من صدور الاستشراق عام ١٩٧٨م، بدأتُ بتجميع بعض الأفكار التي كانت قد تجلَّتْ لي، وأنا أنجز ذلك الكتاب حول العلاقة بين الثقافة والإمبراطورية، وكانت أولى النتائج سلسلة من المحاضرات ألقيتُها في جامعات الولايات المتحدة، وكندا، وإنجلترا عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦م، وتُشكِّل تلك المحاضرات المنظومة اللبابية للكتاب الحالي الذي ظلَّ يشغلني بانتظام منذ ذلك الوقت»(٤).

ويلخص ما أراد فعله في كتابه بقوله: «ما حاولت أن أفعله في هذا الكتاب

(١) التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص١٠.

(٢) مقال: إرث الاستشراق باقٍ بعد رحيل إدوارد سعيد ـ تفكيك البنى السياسية للإمبريالية الغربية والأمريكية، د. جيمس بشاي، ضمن إدوارد سعيد طائر القدس المهاجر، ص١٠٧.

(٣) انظر: صدام ما بعد الحداثة: إدوارد سعيد وتدوين التاريخ، شيلي واليا، ترجمة: عفاف عبد المعطي، (القاهرة، دار رؤية، ط١، ٢٠٠٦م) ص١٢، ١٣.

(٤) الثقافة والإمبريالية، ص٥٧.

الاستشراقية للعالم الإسلامي، كما هي مترابطة مع طرق أوروبا الخاصة في تمثيل جزر الكاريبي وإيرلندا والشرق الأقصى»[١].

ويرى أن الحقيقة التي تكاد تنطبق على كل مكان في العالم غير الأوروبي هي أن وصول الرجل الأبيض قد استثار المقاومة على درجة أو أخرى. والذي أغفله في «الاستشراق» هو «تلك الاستجابة للسيطرة الغربية التي تُوِّجت بالحركة العظيمة لفكفكة الاستعمار عبر العالم الثالث بأسره، لقد رافق المقاومة المسلحة في أماكن متباينة تبايُنَ الجزائر وإيرلندا وأندونيسيا في القرن التاسع عشر قدرٌ عظيمٌ ـ أيضاً ـ من المقاومة الثقافية في كل مكان تقريباً، كما رافقها تأكيد الهوية القومية، ورافقها ـ المجال السياسي ـ تكوين الروابط والأحزاب التي تسعى إلى هدف مشترك هو تقرير المصير وتحقيق الاستقلال الوطني»[٢]. فعمله المميز الأخير «الثقافة والإمبريالية» وسَّع أطروحة كتاب «الاستشراق» لتشمل جهات جغرافية أوسع في العالم تتجاوز الشرق وحقول بحث وإبداع كالرواية والشعر، دارساً في هذا الكتاب التحليلي واسع الاطلاع والمعرفة علاقة صعود الرواية وتطورها بالتوسع الإمبريالي[٣].

«في الاستشراق صرف إدوارد سعيد النظر عن جملة الاستجابات التي ترافقت مع الهيمنة الغربية على امتداد العالم الثالث، وأخذت شكل حركات مقاومة مسلحة ـ وجمعيات تسعى إلى حق تقرير المصير والاستقلال الوطني ـ، مثلما أخذت شكل مقاومة ثقافية تستهدف تثبيت الهوية الوطنية، وفي «الثقافة والإمبريالية» يستدرك سعيد ما غاب عن الكتاب الأول، سواء في مناقشة نسق الثقافة والإمبريالية أو تجربة المقاومة التي أفرزها ذلك النسق ضمن عوامل أخرى»[٤].

---

(١) الثقافة والإمبريالية، ص٥٧.
(٢) المرجع السابق، ص٥٧.
(٣) دفاعاً عن إدوارد سعيد، ص١٥.
(٤) تعقيبات على الاستشراق، ص٣١، وانظر: إضاءات على كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، ص١١، ١٢، وانظر مقال: سعيد وماركس والاستشراق، أنور مغيث، مجلة البلاغة المقارنة ـ ألف ـ، الجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة، العدد: ٢٥، ٢٠٠٥م، ص١١٥.

فحص سعيد العلاقة بين الإمبريالية المهيمنة والثقافة خاصة إبان الاستعمار الفرنسي والبريطاني في القرن التاسع عشر والذي عُدَّ تاريخياً من مغامرات البشرية المهمة، حيث تم ـ أيضاً ـ اجتياح المسارب الثقافية المختلفة من الرواية والأوبرا والشعر حتى أجهزة الإعلام.. وعليه تصبح الثقافة فن المؤسسات الإمبراطورية التي تهندس تركيب المشاعر وتمنح المستعمر شعرية كبرى للهيمنة.

وفي دراسته «الثقافة والإمبريالية» دقَّق النظر في السمة الحقيقية للفن والتي وُظِّفت بشكل حاسم لاستبقاء واستمرار الأنظمة الإمبراطورية على اعتبار إيجاد رؤية تفسير كيف تستعمل الثقافة كبنية فعَّالة لتأسيس الإمبراطورية(١). فاستطاع سعيد من خلال قراءة جديدة جادة للنصوص الغربية المختلفة وربطها وتحليلها والتنقيب عن جذورها أن يوسع مفهوم الثقافة ويجعلها لأول مرة شمولية، حدودها الصغرى والكبرى هي العالم، مؤكداً على أن سقفها يجب ألا يتعثر في بديل دون العالم الرحب.

بادئ ذي بدء يبين إدوارد سعيد كيف أن الكتَّاب الغربيين تعرضوا لمفهوم الثقافة المعقد الذي يكاد يكون أصعب مفهوم من بين المفاهيم المماثلة مثل الحرية والديمقراطية وما إلى ذلك، وكأن إدوارد سعيد في كتابه يقول: كيف أن كبار المفكرين الغربيين لم يدَّخروا جهداً في تتبع الثقافة وتشعباتها، لكنهم وقفوا عند علاقتها بالاستعمار، وهي كما يبين سعيد أهم استثمار استثمره الغرب في توطين نفسه استعمارياً سواء داخل ثقافته أو خارجها(٢).

ويقرِّرُ في هذا الكتاب أن «العمليات المؤسساتية والسياسية والاقتصادية لا تعد شيئاً دون سلطة الثقافة التي تعمل على استمرارها، ومثال ذلك: ما الذي جعل البريطانيين يحكمون في الهند شعباً بمئات الملايين بأُناس لا يتعدون المائة ألف؟ ماذا عن ذلك الحضور الذي يؤدي إلى التأثير العاطفي، وأحياناً الإعجاب بالنخبة الهندية على الرَّغم من المصادرات والاستغلال الذي ميَّز أمراء الهند؟ يتجلى ما يطرحه سعيد في أن الثقافة ـ على الرغم من عجرفة افتراضاتها أحياناً ـ

(١) انظر: صدام ما بعد الحداثة إدوارد سعيد وتدوين التاريخ، ص١٢١.

(٢) إدوارد سعيد رواية للأجيال، ص١٩٧، ١٩٨.

هي التي توفر ذلك النوع من السلطة الأخلاقية، التي تخلق نوعاً من الطمأنينة الأيديولوجية»[١].

كتابه «الثقافة والإمبريالية» يبين «بإيجاز شديد كيف أن الغرب الاستعماري وظَّف الثقافة الغربية ـ خصوصاً الإنجليزية والفرنسية ـ سلاحاً يحمي الاستعمار، بل ويجعل استمراره شرعياً، فكما كشف لنا ـ سعيد ـ كيف أن الاستعمار الغربي سطا على الشرق بثقافة الاستشراق، فإنه أكمل دائرة الممارسة الاستعمارية بكتاب «الثقافة والإمبريالية» ليبين كيف أن الغرب استثمر ثقافته ـ أيضاً ـ في بعث صورة مشرقة عن نفسه، هي في الواقع نفس الصورة التي تسلح بها في تصويره للشرق: صورة الأنا الفوقية مقابل الآخر الدونية، وهي العلاقة التي تعرف ممارسة الاستعمار»[٢].

ومن خلال التأمل في كتابه يمكننا إيجاز المعنى الذي يقصده سعيد في الثقافة، على النحو التالي:

١ ـ جميع تلك الممارسات مثل فنّ الوصف والتوصيل والتمثيل التي تملك استقلالاً نسبياً عن المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والتي كثيراً ما توجد في أشكال جمالاتية تشكل اللذةُ واحدة من غاياتها الرئيسة، ويندرج في ذلك كل مخزون المأثورات الشعبية حول أجزاء نائية من العالم، والمعرفة المتخصصة المتاحة في حقول تفقهية مثل علم الأعراق الوصفي وعلم التاريخ وفقه اللغة وعلم الاجتماع والتاريخ الأدبي، ولما كان تركيزه على ما ينحصر في الإمبراطوريات الغربية الحديثة في القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد تناول بشكل خاص أشكالاً ثقافية كالرواية، والتي يعتقد أهميتها ويعتبرها المشروع الجمالي الذي تُمثل علاقتُه بالمجتمعات المتوسعة في بريطانيا وفرنسا ظاهرةً شيّقة بصورة خاصة للدارس.

٢ ـ الثقافة مفهوم يضم عنصراً منقّياً ودافعاً إلى السمو، هو مخزون كلّ مجتمع مِنْ أفضل ما تحققت المعرفةُ به والتفكير فيه، والثقافة بهذا المعنى مصدر من مصادر الهوية، وهي مصدر صدامي ـ أيضاً ـ كما في حالات الرجوع إلى

---

(١) إدوارد سعيد مفارقة الهوية، ص١١٨.

(٢) إدوارد سعيد رواية للأجيال، ص١٩٧.

الثقافة والتراث. وهي بهذا المعنى مسرحٌ من نمط ما تشتبك عليه قضايا سياسية وعقائدية متعددة متباينة، وقد تكون ساحة عراكٍ فوقها تعرِّض القضايا نفسها لضوء النهار وتتنازع فيما بينها كاشفةً ـ مثلاً ـ حقيقة أن الطلبة الأمريكيين أو الفرنسيين أو الهنود الذين يُلَقَّنون أن يقرؤوا آداب أوطانهم المكرّسة قبل أن يقرؤوا آداب الآخرين، يُتوقع منهم أن ينتموا بولاء غير نقدي ـ غالباً ـ إلى أممهم وتراثاتهم فيما يزدرون الآخرين ويحاربونهم.

إن المشكلة في هذه الفكرة عن الثقافة كما يرى سعيد ـ هي أنها تقتضي لا أن يبجِّل المرءُ ثقافته وحسب، بل أن يفكر بها ـ أيضاً ـ بوصفها معزولة عن عالم الحياة اليومية لأنها تتسامى فوق هذا العالم وتتجاوزه، ونتيجةً لذلك فإن معظم محترفي العلوم الإنسانية عاجزون عن أن يعقدوا الصلة بين الفظاظة المديدة الآثمة لممارسات الرق والاضطهاد الاستعماري والعنصري والإخضاع الإمبريالي من جهة، وبين الشعر والرواية والفلسفة التي ينتجها المجتمع الذي يقوم بمثل هذه الممارسات من جهة أخرى.

وهو يرى أن الثقافة ميدان نشاطٍ فائق التنوع، فالروايات والأعمال الأخرى التي يناقشها في الكتاب يعدها أعمالاً من الفن والمعرفة جديرةً بالتقدير والإعجاب، ويشعر معها باللذة والفائدة، ويرى أن التحدي تجاوز ربطها باللذة والفائدة إلى ربطها بالعملية الإمبريالية التي كانت هذه الأعمالُ بصورة جلية ومعلنة جزءاً منها[١].

ثالثاً: كتاب «تغطية الإسلام» «Covering Islam»:

كتاب «تغطية الإسلام» يعدُّ استمراراً لنقد المنهج الغربي في دراسة الشرق وقضاياه، الذي بدأه إدوارد سعيد في «الاستشراق» ومارس فيه هوايته النقدية على بعض المنتجات الفكرية والشعرية والروائية. وفي «تغطية الإسلام» يتجه لنقد وسائل الإعلام بذات المنهج النقدي، ليدلل على صحة استنتاجاته السابقة، وأن الإعلام الأمريكي يسير على ذات النهج الغربي في القرن الثامن عشر وما بعده عن طريق السيطرة على وسائل الإعلام، والسعي إلى تشويه الشرق الإسلامي.

---

(١) الثقافة والإمبريالية، ص٥٨، ٥٩.

أصدر إدوارد سعيد كتابه «تغطية الإسلام» في عام ١٩٨١م باللغة الإنجليزية، ثم ظهر الكتاب في طبعته الثانية عام ١٩٩٧م، وقام بترجمته الدكتور: محمد عناني إلى اللغة العربية عام ٢٠٠٥م.

ويذكر إدوارد بأن قضيته في هذا الكتاب هي الارتباط الوثيق بين التغطية المتعمدة للإسلام التي توجد في الدوائر الأكاديمية وبين الحكومات الغربية وأجهزة الإعلام[١].

ويرى أن أجهزة الإعلام الغربية شُغِلتْ بتغطية الإسلام في الأعوام الماضية، خصوصاً منذ أن لَفَتت أحداث إيران أنظار الناس في أوروبا وأمريكا إليه وشَغَلَهم حقاً، فإذا بهذه الأجهزة تتصدى لتصوير الإسلام، وتحديد ملامحه، وتحليله، وتقدم دراسات فورية عنه، وهذه التغطية مضلِّلة حتى ولو بدت شاملة[٢].

ويرى «ميخائيل زيليغ» إسهام سعيد في «تغطية الإسلام» بأنه فتح مجالات جديدة غير مستكشفة قبلاً في دراسات وسائط الإعلام الجماهيرية، المعروفة بتأثيرها الكبير في الرأي العام، وبخاصة الشؤون الخارجية، وذلك من خلال توضيحه مدى تأثيرها واعتماده على الخبراء الحكوميين والأكاديميين الذين تشكّل تلك الوسائط منبراً لهم، فيما تنشره من معلومات[٣].

ويعرض سعيد إلى التحولات التي طرأت على العالم بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وانهياره، وانتقد التقسيم الساذج القديم للعالم في عيون الولايات المتحدة إلى معسكرين: معسكر يناصر الشيوعية ومعسكر يناهضها، ويؤكد على تقسيم لا يقل تبسيطاً وسذاجة وهو تقسيم العالم كله إلى معسكرين من نوع آخر: معسكر يناصر الإرهاب ومعسكر يناهضه[٤].

ويحدد في مقدمته المشكلة البحثية التي يناقشها بأنها «المواقف الغربية، والمواقف الأمريكية خصوصاً إزاء العالم الإسلامي الذي بدأ الغربيون يرون ـ منذ

---

(١) انظر: تغطية الإسلام، ص٣٣٠.
(٢) انظر: التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٤٨.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٤٨.
(٤) انظر تغطية الإسلام، ص٧.

مطلع السبعينيات ـ أن له صلة وثيقة بهم، ومع ذلك فهو يموج بالقلاقل المعادية لهم، ويمثل مشكلة لهم»[١].

ويرى أن من أسباب بداية التغطية المُضَلِّلة عن الإسلام هو «الإحساس الحاد بنقص إمدادات الطاقة، وهو الإحساس الذي تركز على النفط العربي ونفط الخليج العربي، وعلى منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك) والآثار الضارة الناجمة عن التضخم في المجتمعات الغربية وارتفاع أسعار الوقود ارتفاعاً بالغاً، أضف إلى ذلك أن الثورة الإيرانية وأزمة الرهائن قدمتا أدلة جديدة، تدعو إلى الانزعاج، على صحة ما أصبح يشار إليه باسم عودة الإسلام»[٢]. فالشيء الوحيد الحاضر دائماً في تغطية الغرب للإسلام هو الإمبريالية ـ كما يصورها سعيد ـ، سواء أكان حقل الدراسة أدباً أم تاريخاً، أم علم اجتماع، أم أحداثاً سياسية[٣].

إن كل الأطياف السياسية الغربية ترى في الإسلام كل مكروه في الأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية، «فاليمين يرى أن الإسلام يمثل الهمجية، واليسار يرى أنه يمثل حكم الدين في القرون الوسطى، والوسط يرى أنه مثل الغرابة الممجوجة»[٤].

بدأ كتابه «تغطية الإسلام» بالحديث عن أزمة الرهائن الأمريكيين في إيران عام ١٩٨١م، وقد احتجزوا في السفارة الأمريكية في طهران لمدة ٤٤٤ يوماً، ويرصد إدوارد حديث الإعلام أثناء عودتهم ومحاولات تشويههم للإسلام، وقدَّم أمثلة لما كتب في بعض الصحف الأمريكية مثل: «نيويورك تايمز»، و«لوس أنجلوس تايمز»، و«واشنطن بوست» وغيرها.

وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة فصول رئيسة:

١ ـ تصوير الإسلام في الأخبار.

٢ ـ قصة إيران.

٣ ـ المعرفة والسلطة.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧.

(٢) انظر: تغطية الإسلام، ص٢٨.

(٣) التسامح في فكر إدوارد سعيد، ص٣٩.

(٤) انظر: تغطية الإسلام، ص٣٧.

في فصل «تصوير الإسلام في الأخبار» يناقش مسألتين:

الأولى: أن التغطية الإعلامية للإسلام تتركز حول توريد بلدانهم للنفط، وأنهم إرهابيون يهددون الغرب، ومن الأمثلة التي ذكرها ـ وتجمع موضوعي النفط والإرهاب ـ: الإعلان التلفزيوني في صيف عام ١٩٨٠م لشركة «أديسون» المتحدة بنيويورك والتي تريد إقناع الأمريكيين بضرورة توفير مصادر بديلة للطاقة، يصور إدوارد هذا الإعلان بقوله: «يتضمن لقطات متحركة قديمة لبعض الشخصيات المعروفة في منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) ـ مثل: الدكتور أحمد زكي يماني، والعقيد معمر القذافي، وبعض الشخصيات العربية التي تلبس الزي العربي وإن تكن أقل شهرة ـ ويمزج بينها، بالتناوب، وبين اللقطات الثابتة الأخرى، إلى جانب لقطات لشخصيات أخرى ارتبطت أسماؤها بالنفط والإسلام مثل: الخميني، وعرفات، وحافظ الأسد. ولم يشر الإعلان إلى أي من هذه الشخصيات بأسمائها، ولكن المذيع قال بصوت المنذر المحذِّر: إن «هؤلاء الرجال» يتحكمون في مصادر النفط الأمريكية. وكان صوت المذيع القادم من الخلفية ذا نبرات وقورة، ولم يفصح عن أسماء الرجال ولا عن البلدان التي ينتمون إليها، بل ترك المشاهدين يشعرون بأن هذه الكوكبة من الأشرار الذكورية قد أوقعوا الأمريكيين في قبضة من يتلذذ بتعذيبهم دونما ضابط أو رابط»[١].

وفي المسألة الثانية من هذا الفصل يشير إلى أن من يحدد هذا التمثيل أو التفسيرات للإسلام، في المقام الأول، هو مصالح وجماعات خاصة مثل شركات النفط، والصهاينة وغيرهم بدلاً من المصالح الوطنية الأمريكية[٢].

وفي الفصل الثاني من الكتاب يسلط الضوء على أزمة الرهائن الأمريكيين في إيران عام ١٩٧٩م، وكيفية تعامل الإعلام الأمريكي مع الحادثة وتشويه الإسلام، وقارن بين الإعلام الأمريكي الذي اختزل الإسلام في حادثة احتجاز رهائن، وبين الإعلام الفرنسي ممثلاً بجريدة «لوموند» الذي أحاط بالموضوع من جوانب متعددة.

---

(١) المرجع السابق، ص٦٨، ٦٩، وانظر الصفحات: ٧٠ ـ ١١٧، وانظر: كتاب التسامح الديني في فكر إدوارد سعيد، ص٥٠.

(٢) تغطية الإسلام، ص٣٧، وانظر الصفحات: ١١٨ ـ ١٧٣، وانظر: التسامح الديني في فكر إدوارد سعيد، ص٥٠.

وفي الفصل الثالث: المعرفة والسلطة يؤكد على صحة نتائجه التي توصل إليها حول الاستشراق، وتأثير السلطة السياسية على دراسات الشرق الأوسط، ومسألة المعرفة والسلطة هي مرتكز سعيد في كل دراساته المتعلقة بالاستشراق، لذلك يقول: «لا يمكننا أن نقول: إن دراسة الإسلام اليوم حرة أو بريئة في أي جانب من جوانبها تقريباً، أو إن الضغوط المعاصرة الملحة والعاجلة لا تحدد مسارها. وما أبعد هذا عن الموضوعية غير السياسية التي يصف بها الكثيرون من الباحثين في مجال الاستشراق عملهم»(١).

إن القضية التي تشغل ذهن سعيد هي تمثيل الشرق، والصور الذهنية التي رسمها الغربيون ـ خاصة أمريكا ـ عنه، ومن ذلك تمثيل الإسلام في هذه الفترة(٢)، وهذا ما جعل بعض أعدائه من الغربيين يتهمه بأن هدفه في كتبه هو الدفاع عن الإسلام، وهذا ما قاده للدفاع عن نفسه في أكثر من مناسبة، فقال في مقدمة كتابه هذا: «ما أبعد هذا الكتاب إذن عن أن يكون دفاعاً عن الإسلام فذلك أمر بعيد الاحتمال وجهد لا طائل من ورائه في حدود ما يرمي إليه الكتاب الذي يقتصر على وصف صور استعمال المصطلح «الإسلام» في الغرب»(٣).

وفي تقديري إن الاستماتة بأن إدوارد مدافع ومنافح عن صحة الإسلام فيه مبالغة، فإدوارد يدافع عن فكرة فلسفية آمن بها ويؤكد عليها في أغلب كتبه، ويعتمد على المنهج الإنساني في تحليله ونقده، إضافة إلى ظروف نشأته الأولى في مصر أو فلسطين ومعاناته من العنصرية الغربية في فترات حياته المختلفة، والانتكاسات التي عانتها القضية الفلسطينية، كل هذه الأمور جعلت إدوارد يتجه إلى دراسة علاقة المعرفة بالسلطة، وتمثيل الشرق ووصفه بصفات خيالية هجائية، ولم تكن قضيته صحة الإسلام من عدمه ولم يصرِّح بذلك في كتبه وإن كان سبب اهتمامه بالإسلام التكالب الغربي على القضية الفلسطينية، مما جعله يهتم بالشرق وقضاياه، فقد كان هدفه بيان أن الشرق يعاني من تشويه كبير من قبل الكُتَّاب والأكاديميين والسياسيين.

---

(١) تغطية الإسلام، ص٢٨٨.

(٢) إدوارد سعيد، مفارقة الهوية، ص١٧٦.

(٣) تغطية الإسلام، ص٣٨، وانظر: تعقيبات على الاستشراق، ص٣٨

رابعاً: كتبه حول القضية الفلسطينية:

إن المتتبع للبناء الفكري لإدوارد سعيد يرى بوضوح اتجاهه لهوية المثقف ورؤيته ودوره وتأثيره ورسالته في الحياة، وأصبح الأمر هاجساً عنده حتى استطاع رسم هويته الثقافية ونحت خطه النضالي المتمثل في فضح الاستعمار وأدواته وحجم تأثيره، والانتصار للشعوب المظلومة المستعمَرة والتي كان شعبه الفلسطيني من ضمنها، وتبنى خيار المواجهة للقوى الاستعمارية انطلاقاً من إحساس المثقف بمسؤولية مجتمعه، وشعوراً بمعاناة طويلة بدأت قصتها منذ طفولته وتشرده مع عائلته خارج فلسطين. اجتمع في إدوارد المكانة الأكاديمية والعلمية المتميزة والمتمثلة بكتاباته العلمية الرصينة من جهة، والتجربة الشخصية كلاجئ فلسطيني من جهة أخرى.

بدأ إدوارد يعود سياسياً إلى العالم العربي بعد هزيمة ٦٧م - حرب النكسة - كما يقول في «خارج المكان»: «بعد سنوات من حياتي خارج العالم العربي، هي سنوات دراسة، وتعليم، وعيش وكتابة كلها باللغة الإنجليزية، اتخذت قراري، بُعَيْد حرب ١٩٦٧م بأن أعود سياسياً إلى العالم العربي الذي كنت قد أغفلته خلال سنوات التعليم والنضج تلك.. كان عليّ أن أعيد توجيه حياتي؛ لتسلك حركة دائرية تعيدني إلى نقطة البداية مع أني كنتُ قد بلغت نهاية الثلاثين من عمري، اخترت أن أستعيد هويتي العربية، ولكني عربي لا يتلاءم تاريخه تماماً مع تقدمه في العمر»[١].

انطلقت رحلته الكتابية حول القضية الفلسطينية بمقال حول التجربة الفلسطينية والذي نشر في عام ١٩٦٩م[٢]، ثم توجه اهتمامه يتمحور حول القضية الفلسطينية فألَّف عدة كتب حولها من أهمها: «مسألة فلسطين»، و«القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي»، و«غزة أريحا: سلام أمريكي»، و«نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها». وكان يهدف من خلالها توضيح الموقف الفلسطيني

---

(١) خارج المكان، ص٩.

(٢) عنوان المقال نشر في: «The Palestinian Experience (1968-1969)»
Herbert Mason, ed., Reflections on the Middle East Crisit (The Hague: Mounton, 1970) p. 127 - 47.

إلى الجمهور الغربي، والأمريكي على وجه الخصوص[١].

إن غالبية إنتاجه الفكري له صلة مباشرة وغير مباشرة بالقضية الفلسطينية وبالصراع العربي ـ الإسرائيلي، ويرجع الباحثون قوة مؤلفاته كـ«الاستشراق» و«الثقافة والإمبريالية» إلى إحساسه الشخصي العميق بالظلم الواقع على الشعب الفلسطيني والتشويه المتعمد للقضية الفلسطينية[٢].

ويرى سعيد أن المسألة الجوهرية «هي علاقة الخطاب بالتاريخ، فالخطاب الصهيوني كان منذ البدء خطاباً كولونيالياً ـ استعمارياً ـ أي: كان جزءاً من مبنى ثقافي سياسي أفرزته الحركة الكونيالية التي أسست الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، وكان في ذلك محاولة لإيجاد حل للمسالة اليهودية استناداً إلى هذا الخطاب وكجزء منه؛ أي: أن الحركة الصهيونية ليست مؤامرة ثقافية سياسية مثلما جرى تصويرها في الكثير من الأحيان، بل جزء من نسيج نجح في تحويل غزو فلسطين إلى أكثر مشكلات العالم المعاصر تصعيداً لأن لهذا الخطاب وجهين متلازمين: فهو من جهة خطاب كولونيالي مرتبط بالمشروع الأوروبي واستتباعاً بالولايات المتحدة، وهو من جهة أخرى يستند إلى شرعية دينية أسطورية»[٣].

ولم يكتفِ بالكتابة والتأليف حول قضية حياته، بل اتجه للانخراط في العملية السياسية، فقد ارتبط بأصدقاء فلسطينيين وتواصل مع الحركة الوطنية الفلسطينية والتقى بعدد من قيادييها لكنه رأى أن الدور الملائم في تلك المرحلة هو تعريف الرأي الأمريكي والغربي بالقضية الفلسطينية، عن طريق الكتابة الصحفية والحديث في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة. فقد مكث سنوات طويلة وهو المتحدث الرئيس باسم القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة، ومع ذلك يقول: «إنَّ فلسطين قضيَّة غير مجزية.. فأنت لا تأخذ شيئاً في مقابل

---

(١) انظر: إدوارد سعيد، مفارقة الهوية، ص١٦٦.

(٢) انظر: إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، حسن نافعة، مجلة البلاغة المقارنة ـ ألف ـ، الجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة، العدد: ٢٥، ٢٠٠٥م، ص٣٤.

(٣) قراءة في كتاب «مسألة فلسطين»: لإدوارد سعيد، إلياس خوري، ضمن كتاب إدوارد سعيد الطائر المهاجر، ص٤٤.

التزامك بها سوى الازدراء والاضطهاد والنبذ.. كم من الأصدقاء يتجنَّبون الخوض في هذه المسألة! وكم من الزملاء لا يرغبون في سماع أيِّ خطاب فلسطيني! وكم يصرف الليبراليون المتحمِّسون من الوقت في الاهتمام بقضايا البوسنة والهرسك، والشيشان، والصومال، ورواندا، وجنوب إفريقيا، ونيكاراغوا، وفيتنام، والحقوق الإنسانية والمدنية في أي مكان على وجه البسيطة، ولكنهم لا يفعلون شيئاً من ذلك عندما يتعلَّق الأمر بفلسطين أو بالفلسطينيين؟!»[1].

بعد لقائه الأول بالرئيس عرفات في نيويورك عام ١٩٧٤م وترجمته لخطابه الشهير في الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى الإنجليزية بدأت ملامح مرحلة جديدة تتشكل عند إدوارد، حيث توطدت علاقته بقيادات منظمة التحرير الفلسطينية، ساهم في هذه الفترة في العديد من الاتصالات والمفاوضات العلنية والسرية، استهدفت فتح جسور حوار مباشر بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية، حتى انضم إلى عضوية المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٨٢م. وكان من المؤثرين في حث المجلس على القبول بمبدأ الأرض مقابل السلام وقيام دولة فلسطينية مستقلة في حدود ١٩٦٧م تتعايش جنباً إلى جنب مع دولة إسرائيل. اكتشف إدوارد أن الطرف الأمريكي والإسرائيلي أخذوا في ابتزاز الطرف الفلسطيني والحصول على أكبر قدر من التنازلات، كما اكتشف بعض العلل والمشكلات في منظمة التحرير الفلسطينية، وقرر الانسحاب متعللاً بمرضه اللوكيميا وأعلن استقالته من المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٩١م ولم يصرح بالأسباب الحقيقية لاستقالته. وبعد اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣م قاد المعارضة الفكرية ضد اتفاقات أوسلو، وكتب عدة مقالات حولها حتى جمعت في كتاب بعنوان: «نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها».

والإستراتيجية التي كان يراها أفضل من غيرها وأكثر فاعلية في التوصل إلى

---

(١) SAID, E. W. 1998. Between Words, London Review of Books, 20:9.

وانظر:

SAID, E. W. 1999b Out of place: a memoir. New York: Alfred A. Knopf.

وانظر: إدوارد سعيد الثقافة والمقاومة، ص١٣.

تسوية حقيقية هي إستراتيجية التعايش بين الشعبين الفلسطيني واليهودي في دولة واحدة ثنائية القومية، وليس إستراتيجية الانفصال الكامل[١]، وهذه الرؤية تخالف ما يؤمن به أغلب الفلسطينيين من ضرورة قيام دولة فلسطينية مستقلة ـ وإن كانوا يختلفون في حدود هذه الدولة المستقلة ـ. يقول في إحدى المقابلات معه مؤكداً ما ذهب إليه: «على أي حال لست متأكداً من أنني أؤمن بأن الحل كان يمكن أن يكون منذ البداية تقسيم فلسطين. لم أعد أفكر في أن حل المشاكل السياسية يمكن أن يتحقق بتقسيم الأرض إلى أجزاء أصغر فأصغر.. إن أي تفكير في النقاء ـ أي: هذه المنطقة أو تلك وطن فلسطيني أو إسرائيلي ـ هو في نظري تفكير غير سليم، أنا أؤمن قطعاً بتقرير المصير، فإذا أراد الشعب أن يفعل ذلك فله أن يفعل، ولكني لا أرى حاجة للمشاركة فيه»[٢]، فهو لا يؤمن بالتقسيم على أساس عنصري أو ديني، بل يريد دولة ديموقراطية يتعايش فيها الفلسطيني والإسرائيلي على حد سواء، ويدعم حجته هذه بالنظر إلى تاريخ الأندلس أو الإمبراطورية العثمانية فإنك تجد التعايش بين الطوائف والأديان وإن كانوا أقلية[٣].

وفي حواره مع «ديفيد بارساميان» يلخص سعيد أربعة عوامل دعته للمناداة بدولة ذات قومية ثنائية، وهذه العوامل هي:

١ ـ أن اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين منضفرون ديمغرافياً على نحو يتعذَّر تغييره.

٢ ـ أن التفاعل بين الفلسطينيين والإسرائيليين يتسم بالكراهية والعداء بمنتهى الوضوح، لكنهم يتواجدون فيزيائياً معاً في المكان نفسه من خلال تشغيل الإسرائيليين للفلسطينيين في بناء المستوطنات وفي المطاعم وغيرها.

٣ ـ وجود جيل أصغر من الفلسطينيين الذين هم ـ أيضاً ـ مواطنون إسرائيليون، والذين يقودهم عضو الكنيست عزمي بشارة، لقد عاشوا مع

(١) انظر: إدوارد سعيد والقضية الفلسطينية، حسن نافعة، مجلة البلاغة المقارنة ـ ألف ـ، الجامعة الأمريكية المفتوحة بالقاهرة، العدد: ٢٥، ٢٠٠٥م، ص٣٤.

(٢) إدوارد سعيد مقالات وحوارات، ص١٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٢.

الإسرائيليين كمواطنين من الدرجة الثانية أو بوصفهم غير مواطنين عندما يتعلق الأمر بشؤون الهجرة وملكيَّة الأرض، وهم مدركون للصعوبات التي تواجههم، ويتلقون دعماً ضمنياً من العلمانيين الإسرائيليين.

٤ ـ الواقع الديمغرافي الذي لا ينفصل عن خلفية فشل أوسلو وإفلاس رؤية «نتنياهو» وعرفات و«كلينتون». يقرر هذا الواقع أن تفاوتاً ديمغرافياً سينجم بين الفلسطينيين والإسرائيليين بحلول نهاية عام ٢٠١٠م. وتجدر ملاحظة أن الناس في جنوب أفريقيا لم يتمكنوا من تكريس وإدامة سياسة التمييز العنصري في بلاد أكبر بعشرين مرة وفي زمن أطول. وهكذا، فإنه يبدو من غير المتحمل أن تتمكَّن إسرائيل من سياسة تمييز عنصري تجاه الفلسطينيين، في الوقت الذي يكون فيه الفلسطينيون مساوين لهم في العدد، أضف إلى ذلك الفلسطينيين الآخرين والعرب الآخرين في المنطقة، والذين يتفوَّقون على الإسرائيليين عدديًّاً بشكل هائل[1].

إذن، كان إدوارد من أهم الأسماء المنافحة عن قضية فلسطين وحقوق الفلسطينيين، وقد دفع ثمناً كبيراً بسبب ذلك بدءاً من التهميش في وسائل الإعلام، والمضايقات المتكررة من قبل مفكرين، وانتهاءً بمحاولة اغتياله، وحرق مكتبه، فكان رجلاً صادقاً مع نفسه وفياً لقضيته حتى توفي.

(١) انظر: إدوارد سعيد الثقافة والمقاومة، ص٢٠، ٢١.

المناطق[١]؛ لسببين، السبب الأول: هو اتسامه بقدر كبير من الغموض والتعميم، والثاني: هو أنه يوحي بالاستعلاء الذي كان المديرون الأجانب يتسمون به في عهد الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي، ويرى إدوارد أن هذا المعنى أيسر التعريفات المقبولة للاستشراق[٢].

٢ ـ الاستشراق هو أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى «الشرق» وبين ما يسمى «الغرب»، وهذا المفهوم أثر في كتابات كثير

---

(١) يشير الدكتور مازن مطبقاني إلى سعي الغربيين إلى تغيير مصطلح الاستشراق بقوله: «يجب أن نتوقف عند القرار الغربي بالتوقف عن استخدام مصطلح استشراق، أو كما قال لويس إن هذا المصطلح قد ألقي به في مزابل التاريخ، فقد رأى الغرب أن هذا المصطلح ينطوي على حمولات تاريخية ودلالات سلبية وأن هذا المصطلح لم يعد يفي بوصف الباحثين المتخصصين في العالم الإسلامي، فكان من قرارات منظمة المؤتمرات العالمية في مؤتمرها الذي عقد في باريس عام ١٩٧٣م بأن يتم الاستغناء عن هذا المصطلح، وأن يطلق على هذه المنظمة (المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا ICHSAN)، وعقدت المنظمة مؤتمرين تحت هذا العنوان إلى أن تم تغييره مرة ثانية إلى (المؤتمرات العالمية للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية ICANAS)، وقد عارض هذا القرار دول الكتلة الشرقية (روسيا والدول التي كانت تدور في فلكها)، ومع ذلك ففي المؤتمر الدولي الخامس والثلاثين للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية الذي عقد في بودابست بالمجر كان مصطلح استشراق ومستشرقين يستخدم دون أي تحفظات، مما يعني: أن الأوروبيين الغربيين والأمريكيين هم الأكثر اعتراضاً على هذا المصطلح ولعل هذا يفيد المغايرة بحيث يتحدثون عن المستشرقين ليثبتوا أنهم غير ذلك، بل هم مستعربون Arabists، أو إسلاميون Islamists، أو باحثون في العلوم الإنسانية Humanists، أو متخصصون في الدراسات الإقليمية أو الاجتماعية أو الاقتصادية التي تختص ببلد معين أو منطقة جغرافية معينة، أما موقفنا نحن من هذا التخصص أو التخصصات فإنه يسعنا ما وسع الغربيين، فإن هم اختاروا أن يتركوا التسمية فلا بأس من ذلك شريطة أن لا نغفل عن استمرار اهتمامهم بدراستنا والكتابة حول قضايانا وعقد المؤتمرات والندوات ونشر الكتب والدوريات حول العالم الإسلامي واستمرار أهداف الاستشراق، وأن لا يصرفنا تغيير الاسم عن الوعي والانتباه لما يكتبونه وينشرونه» الموقع الإلكتروني: مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، والذي يشرف عليه الدكتور مازن مطبقاني:
http://www.madinacenter.com/post.php?Data ID = 1.

وانظر:

LEWIS, B. 1982. The Question of Orientalism, In New York Times Review of Books. pp. 49 - 56.

(٢) انظر: الاستشراق، ص٤٤.

من الشعراء والروائيين والفلاسفة وأصحاب النظريات السياسية والاقتصادية، والإمبرياليين، فهؤلاء قبلوا التمييز الأساسي بين الشرق والغرب باعتباره نقطة انطلاق لوضع نظريات مفصلة، وإنشاء ملاحم، وكتابة روايات، وأوصاف اجتماعية، ودراسات سياسية عن الشرق، وأهله، وعاداته، وطريقة تفكيره، ومصيره[١].

٣ ـ الاستشراق هو أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه، فهو يرى أن الاستشراق مؤسسة جماعية للتعامل مع الشرق، والسيطرة عليه. ويقصد بالتعامل مع الشرق: التحدث عنه، واعتماد آراء معينة عنه، ووصفه، وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه. ويرى أن هذا التعريف يستند إلى عناصر تاريخيه ومادية أكثر مما يستند عليه المعنيان الآخران. ويلتقط سعيد هذا المعنى من فكرة «ميشيل فوكو» (١٩٢٦ ـ ١٩٨٥م) عن الخطاب، والحجة التي طرحها إدوارد تقول: إننا ما لم نفحص الاستشراق باعتباره لوناً من ألوان الخطاب فلن نتمكن مطلقاً من تفهم المبحث البالغ الانتظام الذي مكّنَ الثقافة الأوروبية من تدبير أمور الشرق[٢]، ويذكر في موطن آخر أنه سيشير إلى تلك المجموعة من الأحلام والصور الشعرية والمفردات المتاحة لكل من حاول الحديث عما يقع في الشرق، والذي يراد به الشرق العربي والإسلامي على وجه التحديد[٣]. بل حتى الأبحاث الأكاديمية الغربية في مجالات الدراسات الإنسانية متأثرة بالاستشراق في نتائجها وأحكامها، «إذ إنّ الباحث الجامعي في الغرب المنتج للمعرفة في العلوم الإنسانية المتعلقة بالشرق ينتمي إلى قوة ذات مصالح محدَّدة في الشرق»[٤].

ويختصر رأيه في مفهوم الاستشراق بأنه ليس مجرد موضوع أو مجال سياسي يتجلّى بصورة سلبية في الثقافة أو البحث العلمي أو المؤسسات، وليس ـ أيضاً ـ مجموعة كبيرة غير مترابطة من النصوص المكتوبة عن الشرق، بل وليس

(١) انظر: المرجع السابق، ص٤٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٤٥، ٤٦ وص١٤٢.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٤٢، ١٤٣.

(٤) إضاءات على كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، ص٢٠.

تمثيلاً وتعبيراً عن مؤامرة إمبريالية غربية دنيئة تهدف إلى إخضاع العالم الشرق. لا بل إنه الوعي الجغرافي السياسي المبثوث في النصوص العلمية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتاريخية، واللغوية[١]. وعلى هذا يكون الاستشراق عند سعيد يشمل التعريفات الثلاثة كلها ولا يكتفي بأحدها عن الآخر.

إن تعريف إدوارد للاستشراق يتجه إلى الجانب السياسي الخالص مع أهميته وفاعليته، ولكنه يغفل جانباً آخر للاستشراق كالجانب الديني والاقتصادي للاستشراق، فيرتبط مفهومه للاستشراق ارتباطاً كبيراً بالجانب الإمبريالي، وهذه النظرة الضيقة للاستشراق أثرت بشكل أو بآخر على عمله ودراسته.

ليس من منهجي في هذه الرسالة مناقشة آراء سعيد عند عرضها، لكني مضطر لذلك؛ لأننا نتحدث عن مفهوم الاستشراق، وهو أساس في فهم الفصول القادمة، وإذا قارنًا تعريفات إدوارد للاستشراق بتعريفات المفكرين المسلمين نجد فيه جوانب اتفاق وجوانب اختلاف. فيعرِّف الدكتور أحمد عبد الحميد غراب الاستشراق بقوله: هو «دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون ـ من أهل الكتاب بوجه خاص ـ للإسلام والمسلمين، من شتى الجوانب عقيدة، وشريعة، وثقافة، وحضارة، وتاريخاً، ونظماً، وثروات وإمكانات... بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي»[٢]. ويقول الدكتور: مازن مطبقاني في تعريفه للاستشراق: «هو كل ما يصدر عن الغربيين والأمريكيين من إنتاج فكري وإعلامي وتقارير سياسية واستخباراتية حول

---

(١) انظر: الاستشراق، ص٥٨.

(٢) رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب، ط٢، (بيرمنجهام، المنتدى الإسلامي، ١٤١١هـ) ص٧، وانظر: تعريفات أخرى للاستشراق تدور حول اهتمام الغرب بعلوم المسلمين وكل ما يتعلق بهم: المستشرقون والدراسات القرآنية، محمد حسن الصغير، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٦هـ) ص١١ ـ ١٣، والاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر، عدنان محمد وزان، (رابطة العالم الإسلامي، ١٤٠٤هـ) ص١٥. وظاهرة الاستشراق مناقشات في المفهوم والارتباطات، علي إبراهيم النملة، (الرياض، مكتبة التوبة، ط٢، ١٤٢٤هـ) ص٢١ ـ ٢٩.

قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة أو الفكر أو الفن، ويمكننا أن نلحق بالاستشراق ما يكتبه النصارى العرب من أقباط ومارونيين وغيرهم ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المنظار الغربي، ويلحق به ـ أيضاً ـ ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيراً من أفكار المستشرقين»[1]، ونستطيع القول بأن الباحثين المسلمين يلتقون مع إدوارد في الرغبة الغربية للهيمنة على الشرق من خلال دراسته ودراسة تاريخه وثقافته وديانته، ولكن نلحظ أن أحداً من المسلمين لم يتطرق إلى مسألة الوعي الجغرافي في كتابات الغربيين المتناثرة، وهذا معنى جديدٌ أضافه سعيد لتعريف الاستشراق، وإن كنا نلمس شيئاً من الخلط عنده في مفهوم الاستشراق والاستعمار، فهو يشير إلى أن أي محاولة للهيمنة على الشرق هي استشراق، وفي حقيقة الأمر هناك فرق بين قولنا: الاستعمار يستفيد من الاستشراق للهيمنة على الشرق، وبين أن نعرِّف الاستشراق بأنه هيمنة غربية على الشرق.

وفي الحقيقة أن الفرق الكبير بين معالجة سعيد للاستشراق وبين معالجة الكُتّاب المسلمين، الفرق يكمن في المنهج النقدي الذي يُعتمَد عليه، فالنظرة الإسلامية تعتمد المنهج الإسلامي في مناقشة الاستشراق ونقده، ومنهج سعيد يقوم على رؤية شخصية تعتمد النزعة الإنسانية والعلمانية أساساً للنقد.

في المنظور الإسلامي أن الغرب النصراني يهدف إلى السيطرة على العالم الإسلامي، كما يهدف إلى تشويه دينه والتشكيك فيه، وفي منظور سعيد دراسة الدين الإسلامي ليس أصلاً إنما هو وسيلة للسيطرة على الشرق. وهذا ما يؤكد عليه في «تغطية الإسلام» حيث يرى أن الصراع بين «الإسلام والغرب» لا بين «النصرانية والإسلام»؛ لأن الغرب تخطى مرحلة التدين[2]، ولكن الأحداث العالمية المتسارعة والتصريح من بعض الساسة الغربيين أن حربهم مع العالم الإسلامي حرب صليبية، والهجوم على الرسول ﷺ وعلى المقدسات الإسلامية،

---

(١) انظر: الموقع الإلكتروني: مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، والذي يشرف عليه الدكتور مازن مطبقاني: http://www.madinacenter.com/post.php?Data ID=1.

(٢) انظر: تغطية الإسلام، ص٨٠.

والتضييق على المسلمين في عباداتهم كالحملة على المآذن والنقاب والحجاب، كل هذه أدلة ملموسة على أن الإسلام هدف أساس للغربيين.

إن النظرة الإسلامية للدراسات الغربية تجاه الشرق لم تكن نتيجة عقدة المؤامرة أو منطلقة من تخيلات لا أساس لها، فهذا أحد رواد المنهج الإنساني صاحب التنشئة النصرانية يبين أن الغرب يهدف إلى تشويه الشرق وخاصة الإسلام للهيمنة عليه وجعله تبعاً له سياسياً، وثقافياً، واقتصادياً.

ثانياً: تمثيل الشرق:

إن تبحر إدوارد سعيد في الأدب الغربي والثقافة الغربية مكّنته من التعرف على الصورة النمطية في أذهان الغربيين منذ القرن الثامن عشر وحتى زمنه الذي عاش فيه، والتي تتمثل بالعلاقة بين المستعمِر والمستعمَر أو المنتصِر والمنتصر عليه، هذه الزاوية هي منطلق إدوارد سعيد في مناقشته للعلاقة بين الغرب والشرق، وهي قاعدة أساسية بنى عليها كتبه التي تناقش هذه العلاقة كـ«الاستشراق» و«الثقافة والإمبريالية» وغيرها.

أوضح سعيد كيف استغل المستشرقون في تصويرهم للشرق ناحيتين فنيتين ارتكزت عليهما صورة الشرق:

أولاهما: الناحية الأكاديمية التي شكلت غطاءً شرعياً تُزعَم من تحته البراءة، فالباحث الأكاديمي تتمتع أقواله بالمصداقية، ومن هنا جاء ما أحدثه صورة «برنارد لويس» عن الشرق من تأثير في عقلية الغرب وموقفه من الشرق. وبهذا فإن الاستشراق يصبح والحالة هذه أداة في متناول المؤرخين، ومن ثمَّ السياسيين.

ثانيهما: الخيال. فقد صاغ المستشرقون صورة للشرق بخيال جعل هذه الصورة تبدو وكأنها تمثيل أو انعكاس خفي للواقع. وكان لهذه الممارسة أكبر الأثر في تسويق الاستشراق من خلال مصداقية الخيال المعهودة، فالذي يقرأ ما كتبه المستشرقون عنّا يقع تحت تأثير الخيال ومن ثمَّ يصدق الصورة(١).

ويؤكد سعيد في مواطن كثيرة من كتبه أن الغربيين كوّنوا جملة من الصور

---

(١) انظر: إدوارد سعيد رواية للأجيال، ص٧٦، وانظر: الاستشراق، ص١١٠ وما بعدها.

سيُقمع ويُبطل ويُلغى»[1]. ونقرأ لعدد من الكُتَّاب الأوروبيين ولسان حالهم يقول: «فنحن نسيطر لأننا نملك القوة (الصناعية، والتقنوية، والعسكرية، والأخلاقية)؛ وهم لا يملكونها، ولذلك فهم ليسوا مسيطرين؛ إنهم دونيون ونحن فوقيون»[2] لذلك جاءت هذه التمثيلاتُ لتؤكد وتثبِّت القوة الأوروبية.

وعند حديثه عن مشروع نابليون[3] أكد «أن نابليون كان يعتبر مصر مشروعاً اكتسب طابع الحقيقة الواقعة في ذهنه، ثم في استعداداته لفتحها فيما بعد، من خلال خبرات تنتمي إلى مجال الأفكار والأساطير المأخوذة من النصوص، لا من الواقع التجريبي، وهكذا أصبحت الخطط التي وضعها لمصر أول حالة تصادفنا في سلسلة طويلة من اللقاءات الأوروبية مع الشرق ويُنتفع فيها مباشرة بخبرة المستشرق الخاصة في تنفيذ مشروع استعماري، ففي اللحظة الحاسمة التي كان على المستشرق أن يقرر إن كان يضمر الولاء والتعاطف مع الشرق أو الغرب الغازي، كان يختار الجانب الأخير، منذ عهد نابليون فصاعداً.. وقيام نابليون بتجنيد عشرات العلماء في حملته المصرية أشهر من أن يحتاج إلى أي تفصيل هنا..»[4].

---

(١) تعقيبات على الاستشراق، ص٢٨.

(٢) الثقافة والإمبريالية، ص١٧١.

(٣) نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte) (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) هو إمبراطور فرنسا في الفترة بين (١٨٠٤ ـ ١٨١٤م)، وهو يُعَدُّ من أهم القادة العسكريين في التاريخ ويتمتع بمقدرات إدارية. وُلد نابليون في جزيرة كورسيكا وتولى قيادة الجيش الجمهوري أثناء حروب الثورة الفرنسية، وأحرز نجاحاً كبيراً في حملته على إيطاليا (١٧٩٦ ـ ١٧٩٧م)، ولكن حملته على مصر (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩م) أخفقت تماماً. وعاد إلى فرنسا والحكومة الثورية على وشك الانهيار، فقام بانقلاب عسكري واستولى على الحكم وقاد حروب فرنسا «الثورية». ثم أدخل إصلاحات على النظام التعليمي وفي مجال القانون ونظَّم العلاقة مع الكنيسة (١٨٠١م)، ثم أصبح إمبراطوراً عام ١٨٠٤م، وبدأ في تكوين أرستقراطية جديدة وبلاط ملكي. وقد امتدت رقعة الإمبراطورية الفرنسية في عهده لتضم كل أوروبا تقريباً. وساهم في تحديث أوروبا ومؤسساتها السياسية والإدارية من خلال غزواته. ولكن شوكة نابليون انكسرت حينما حاول غزو روسيا، وانتهى الأمر بأن هُزم تماماً ونُفي إلى جزيرة إلبا (١٨١٤م) ثم إلى سانت هيلينا (١٨١٥م). موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، (القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٩٩م) ٣/٥٦، ٥٧.

(٤) الاستشراق، ص١٥٢، ١٥٣.

ويرى سعيد أن تمثيل الشرق في كتابات المستشرقين لا تؤثر في الدراسات الأكاديمية فحسب بل في رؤية أبناء البلدان التي تحررت من الاستعمار لذواتهم[١].

الشرقي والشرق رُسِمتْ له صورة خيالية ـ تمثيل ـ من خلال كتابات الروائيين والشعراء والأدباء فضلاً عن تصريحات السياسيين التي تشير إلى الشرقي المتخلف والشرق البدائي، والذي يحتاج للغرب في إدارته وتطويره كما يؤكده سعيد، ونستطيع أن نستنتج السؤال الذي انطلق منه سعيد لكتابة «الاستشراق» وهو: هل الخطاب الغربي يتضمن نظرة استعلائية عند الإشارة إلى الشرق؟ ثم جمع النصوص الأدبية وتفحصها من هذه الزاوية ووجد تصريحات وإيحاءات كثيرة تحتقر الشرقي، وتصف الشرق بالدونية.

ثالثاً: السلطة والمعرفة:

تعتبر مسألة العلاقة بين السلطة والمعرفة من أهم المسائل التي يناقشها إدوارد سعيد في كتاباته[٢]، وهذا ناتج عن تأثير «ميشيل فوكو» (١٩٢٦ ـ ١٩٨٥م) في فكر إدوارد الذي اقتنص الفكرة وبنى عليها عدداً من الأطروحات التي توضح تأزم العلاقة بين الغرب والشرق وبصورة أدق سيطرة الغرب على الشرق باستخدام المعرفة. يعتقد «فوكو» أنه يمكن لمجموعة من الناس أن تمتلك أزمّة السلطة لخلق وجهة نظر عالمية ـ أو إعادة صياغة العالم ـ إذا تسلَّحوا بالمعرفة، ويرى أن كلاً من السلطة والمعرفة يتضافر أحدهما مع الآخر، وأن سيادة السلطة والهيمنة في الوقت نفسه يهدفان إلى المعرفة، وأن المعرفة تُنشئ القوة التي يَباعاً لا يمكن أن تمارَس بدون المعرفة[٣]. كانت هذه العلاقة إضاءة هامة في كتابات سعيد ومحوراً أساسياً في نظرته للحضارة الغربية وتعاملها مع الشرق أو الشرقيين، فقد صرَّح في «الاستشراق» الزاوية التي سيركِّز عليها في دراسته وأنه سيدرس الاستشراق» باعتباره صورة للتبادل؛ أي: التفاعل الدينامي بين المؤلفين الأفراد والمشاغل السياسية الكبرى التي شكلتها الإمبراطوريات

(١) تغطية الإسلام، ص١١.

(٢) الاستشراق، ص٨٢.

(٣) انظر: صدام ما بعد الحداثة، ص٩٤، ٩٥.

«الأجناس المحكومة» عند كرومر، فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو بالشرقيين هي التي تجعل إدارة شؤونهم يسيرة ومربحة، فالمعرفة تأتي بالسلطة، وزيادة السلطة تتطلب زيادة المعرفة. ويلاحظ إدوارد أن «لغتي بلفور وكرومر تحتوي على الشرقي وتؤطره بأطر طاغية وتحكم عليه أبدياً بصفات معينة تُسوِّغ استعماره واتخاذ القرار عنه»[(١)].

لقد تحوَّل الاستشراق مع احتلال «نابليون» لمصر من استشراق ناءٍ وتخيلي إلى استشراق مقيم تستمد نصوصه قوتها وتأثيرها من خلال إقامة المستشرق في الشرق واتصاله به وسيطرته عليه. وقد عاين المستشرق موضوعه كما لو أنه شيء يحاكمه المرء في محكمة جنائية أو يؤدِّبه من خلال السجن أو يصوِّره ويمثِّل عليه[(٢)].

وقد أتى كتابه المكمِّل للاستشراق «الثقافة والإمبريالية» يُدلِّل على هذه الفكرة فيقول في مقدمته: «بعد حوالي سنوات خمس من صدور «الاستشراق» عام ١٩٧٨م، بدأتُ بتجميع بعض الأفكار التي كانت قد تجلَّتْ لي، وأنا أنجز ذلك الكتاب، حول العلاقة بين الثقافة والإمبراطورية»[(٣)] ثم يقول: «إن طريقتي هي أن أركِّز بقدر المستطاع على أعمال فردية، أن أقرأها ـ أولاً ـ كنتاج عظيم لخيال الخلَّاق أو التأويلي، ثم أن أجلو كونها جزءاً من العلاقة بين الثقافة والإمبراطورية. أنا لا أؤمن أن المؤلفين يتحدَّدون بصورة آلية بالعقائد، أو الطبقة، أو التاريخ الاقتصادي، بَيْد أن المؤلفين، كما أؤمن، كائنون إلى حد بعيد في تاريخ مجتمعاتهم، يشكِّلون ويتشكَّلون بذلك التاريخ وبتجربتهم الاجتماعية بدرجات متفاوتة»[(٤)].

تعرَّف الغرب على الشرق الاقتصادي، والاجتماعي، والديني «وكانت النتيجة أن بات الغرب يمارس من خلال هذه المعرفة قوته وهيمنته على الشرق متقمصاً هيئة راعٍ غربي نشط يعرف ويسيطر على رعيته شرقية مستكينة: الغرب

(١) إضاءات على الاستشراق، ص٣٢.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٢.
(٣) الثقافة والإمبريالية، ص٥٧.
(٤) المرجع السابق، ص٦٦.

ذلك الظلام القابل للاستعمار ـ مستقل[١]. وفصَّل سعيد في دراسة رؤى «كونراد» للإمبريالية من خلال رواياته التي كتبها، والذي تتعلق رؤاه الرئيسية للإمبريالية بأفريقيا في «قلب الظلام» (١٨٩٩م)، وبالبحار الجنوبية في «لورد جيم» (١٩٠٠م)، وبأمريكا الجنوبية في «نوسترومو» (١٩٠٤م)[٢].

إن فكرة التأثير المتبادل بين المعرفة والسلطة هي ملهمة سعيد في فكره وكتبه، ولها فضل كبير في نقده للاستشراق ونظرته لسياسة الدول الغربية وخاصة أمريكا تجاه الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية تحديداً، فالغرب الذي يملك المعرفة جعل منها سلاحاً للسيطرة والإمبريالية واضطهاد الشعوب التي يرى دونيتها، فمن يملك معرفة أكثر تكون حظوظه في السيطرة أكثر، وهذه قاعدة مطّردة في التعامل بين الغرب والشرق.

رابعاً: الاستشراق والإسلام:

إن الحدود المكانية لكتاب «الاستشراق» تتركز في العالم العربي والإسلامي، ويذكر إدوارد سعيد أنَّ السبب الذي دفعه إلى أن يجعل الشرق الإسلامي محور اهتمامه؛ هو أنَّ معظم رصيده الشخصي الذي استثمره في دراسة الاستشراق مستمد من وعيه بأنه «شرقي» باعتبار أنه نشأ طفلاً في مستعمرتين بريطانيتين، ويحاول من خلال دراسته إعداد قائمة بالآثار التي خلفها الاستعمار على نفسه، باعتباره ذاتاً شرقية[٣].

ويؤكد سعيد أن الشرق كان مفهومه يقتصر اقتصاراً صارماً على الشرق الإسلامي حتى منتصف القرن الثامن عشر[٤]، ويحدِّد العوامل التي جعلت العرب والإسلام مسألة مشبعة بالدلالات السياسية عالية النبرة بثلاثة عوامل:

«**أما العامل الأول**: فهو التعصب الشائع في الغرب ضد العرب والإسلام، وهذا يتجلى مباشرة في تاريخ الاستشراق.

والعامل الثاني: هو الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية، وتأثير ذلك

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٩٩.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٩٦.
(٣) انظر: الاستشراق، ص٧٦.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٤٤، ١٤٥.

الصراع في اليهود، وتأثير ذلك الصراع في اليهود الأمريكيين، وفي الثقافة المتحررة وفي السكان بصفة عامة.

والعامل الثالث: هو الانعدام شبه التام لأي موقف ثقافي يتيح للفرد التعاطف مع العرب والإسلام، أو مناقشة أيهما مناقشة غير انفعالية» ولا يُغفِل سعيد ارتباط الشرق الأوسط بسياسات الدول العظمى، واقتصاديات البترول، والتقسيم أو التمييز الساذج بين إسرائيل الديمقراطية والمحبة للحرية وبين العرب الأشرار، ذوي الأنظمة الشمولية، والإرهابيين»[(١)].

وفي تحليله للعلاقة المتوترة بين أوروبا والإسلام وخوف الأولى كان له ما يبرره بسبب الهيمنة العسكرية للإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وازدياد الهيمنة الثقافية والدينية للإسلام زيادة هائلة. «فقد فَتَحتْ جيوش المسلمين أولاً بلاد فارس، وسوريا، ومصر ثم تركيا ثم شمال أفريقيا، كما فتحت في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين إسبانيا، وجزيرة صقلية، وأجزاء من فرنسا. وما إن حلَّ القرنان الثالث عشر والرابع عشر حتى أصبح حكم الإسلام يمتد شرقاً إلى الهند والهند الصينية والصين، ولم يكن في طوق أوروبا أن ترد على هذه الهجمة رداً يذكر، إلا بالخوف ولون من ألوان الرهبة. ولم يكن لدى المؤلفين المسيحيين الذين شهدوا الفتوحات الإسلامية اهتمام يذكر بعلوم المسلمين وثقافتهم الرفيعة وصور البهاء والروعة المتواترة لديهم، وهم كانوا، كما يقول «جيبون»[(٢)] (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤م): «معاصرين لأظلم الفترات وأشدها كسلاً في حوليات أوروبا.. ولم يصبح الإسلام رمزاً للرعب والخراب وجحافل الهمجيين الشيطانية الكريهة ـ عند الغرب ـ بلا سبب، فلقد كان يمثل لأوروبا صدمة نفسية متصلة الحلقات، إذ كان الخطر العثماني يكمن نهاية القرن السابع عشر الميلادي بجوار أوروبا ويمثل خطراً دائماً

(١) انظر: الاستشراق، ص٧٨.

(٢) إدوارد جيبون (Edward Gibbon) (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤م): مؤرخ إنجليزي قضى طفولة سقيمة ولم يدرس دراسة منظمة، ولكنه كان نهماً في قراءاته. تعلم بأكسفورد ولوزان. قام بزيارة لروما أمدته بفكرة تأليف كتابه الضخم الخالد: «تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» الذي ظهر في ستة مجلدات (١٧٧٦ ـ ١٧٨٣م)، وكتب سيرة ذاتية.
انظر: الموسوعة العربية الميسرة، إشراف: محمد شفيق غربال، (مصر، دار الجيل، ١٩٩٥م) ١/ ٦٧٥.